خديجة بنت عبد الحي

الأعمال الكاملة

الجزء الثالث

خديجة بنت عبد الحيّ

نقوش

مجموعة مقالات

منشورات خديجة بنت عبد الحي

اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين
الرئيس
د.محمد أحظانا

سدنة الحرف
رئيس مجلس الإدارة
د. عبد الله السيد

©
جميع حقوق الطبع محفوظة
ISBN : 978-2-37711-058-2

إضاءة

بين يديْ القرّاء الأعزّاء أضع هذه "النّقوش" الّتي تشكّلت في فترات متفاوِتة من العقد الزّمنيّ المنصرم على جدران أكبر حافِلة تعبُر الشّارع الرّئيسيّ في بلدي، ذلك الشّارع الّذي لم يُعَبَّدْ بَعْدُ رُغم اكتظاظه الدّائم بالمارّة من كلّ جنس.

فمن رصيفه الرّمليّ حاولتُ أن أقرأ هذه النّقوش وهي تتراءى تارة وتتوارى أحيانا تحت الأتربِة والنَّقْع المثار. رأيت أحرفها تتراقص فوق رؤوس الرّكاب فلا يبدو أنّهم ينتبِهون إليها أو يعيرونها اهتماما بل إنّهم مشغولون بهمومهم الآنِية ويتلهَّفون بشَغَف لِلحظة الوصول.

كنت أرصد كلّ ذلك وأسطِّره لأقدِّمه في الوقت المناسب على أطباق الإخلاص والوفاء لأفواج المسافرين عساه يكشف لهم بعض الأسباب الّتي جعلت الحافلة في العديد من المرّات تبدو حائرة متباطئة رغم حماس الكلّ إلى التّقدّم نحو الأمام.

نعم قد لا يُرى القارئ في هذه النّقوش جديدا بل قد يعزف عنها مُتَّهِما إيّاها بالميل إلى التّوجيه المباشر وقد لا يرى فيها الناقد إبداعا متميّزا طالما أنها لا تتوفّر على الضّبابيّة والغموض اللّذيْن أصبحا أكثر سمات الإبداع الأدبيّ لزوما وتواترا في عصرنا الحاضر.

ومع أنّني أؤمن بأنّ للإبداع أكثر من باب يمكن الدّخول منه لمن لديه مفاتيح مناسبة فإنّني أقول إنّ هذه النّقوش الّتي تحوّلت بين يديَّ إلى سطور، لم يكن يُراد لها أن تحقِّق فتوحات إبداعيّة أو إشراقات بيانيّة أو بديعيّة بقدر ما كان يراد لها أن تحمل رسالة وترسم صورة صادقة معبِّرة عن هموم المرحلة الّتي كُتِبت فيها فهل تحقّق ذلك؟

خديجة 12 مارس 1999

المرأة العاملة بين الواقع والطُّموح

أخيرا أسلمتْنا غمرة الانبهار إلى صحوة؛ فأخذنا نعي ذواتنا ومحيطنا القريب ونراجع أنفسنا وواقعنا لنُدرك ما لنا وما علينا فعسى أن يسدِّد هذا الوعي خطانا نحو العمل الدّؤوب.

أما وقد صار عمل المرأة أمرا واقعا لا يضُرُّه عَتْب المعارضين ولا يحتاج إلى تبرير المناصرين فإنّه بات من الجدير بِمَن أدرك جيّدا تميُّز هذا العمل عن عمل باقي المجتمع أن يكشف القناع عن مواطن تلك الخُصوصيّة وما يترتّب عنها فلا غضاضة إذاً والحالة هذه في أن يُعزَل عمل المرأة مِن بين نشاطات المجتمع وهمومه ليُتناوَل بالبحث والنِّقاش.

ولما كان المقام لا يتَّسِع لبحث الموضوع بحثا مُستفيضا ينأى به عن محدوديّة الإطار الزّمانيّ الضّيّق حسب هذا المقال أن يستجلي غوامض خُصوصيّة المرأة الموريتانيّة في هذا الصّدد مع التّركيز على الوضع الرّاهن.

1- المرأة والعمل قديما

لئن عرفتِ المرأة في بعض المجتمعات القديمة فراغا وركونا إلى الدَّعة والكسل فإنّ المرأة الموريتانيّة لم تعرف ذلك في السّابق بحكم افتقار حياة الحِلّ والتّرْحال إلى مساهمة الجميع كلٌّ حسب مقدرته.

صحيح أنّ الرّأي العامّ عندنا مقتنع بضرورة فراغ المرأة إذ به يتبوَّأُ ذَوُوها مكانة اجتماعيّة مرموقة كما أنّه يُضفي عليها رونقا جماليّا ونمطا سلوكيّا محمودا.

بيد أنّه أمر يعُزّ على غير ذوي المال والحشم الكثير وهم نزر. وعليه فإنّ قساوة الظّروف عملت على جعل مجتمعنا مجتمعا كادحا في أغلبه يستوي في ذلك الرّجل والمرأة.

ولكن ما إن بدأ المجتمع يدخل شيئا فشيئا إلى عالم المدينة والتّحضّر في ظلّ الدّولة حتّى بدأ العمل في هذا الجوّ الجديد يتّخذ منحى آخر.

وليس غريبا أن يطرح العمل في ظلّ الدّولة وفي مؤسّساتها صعوبات جمّة يصعب الانسجام معها لأوّل وهلة إذ هو يختلف كلّيّا عن سابق ما عهدناه من أعمال نظرا لارتباطه بوقت محدّد ومكان مخصوص وأجور ثابتة ومؤهّلات معيّنة يقتضيها الإقدام عليه أصلا.

غير أنّ الأمر لا يقف عند هذا الحدّ بالنّسبة للمرأة العاملة فهي تؤخذ بتطبيق القوانين الصّارمة الحديثة في العمل الرّسميّ بالإضافة إلى عملها المنزليّ الدّائم الّذي لا مناص منه ولن ترضى أن تتنازل عن أحدهما كلّيّا ما دامت العادة تفرض الأوّل والحاجة إلى الاستقلاليّة والمشاركة في البناء الوطنيّ تقتضي العمل الثّاني فهي إذاً ذات نشاط مزدوج بين المنزل والمكتب وربّما دعت الحاجة إلى مزاولة بعض النّشاطات الأخرى طمعا في التّشبّث بأسباب الحياة الهنيئة فكيف ذلك؟

2- المرأة والبيت

يشكّل العمل المنزليّ باكورة النّشاط اليوميّ وخاتمته بل إنّ العمل الرّسميّ قد لا يمثّل إلاّ فاصلة قصيرة بين العمل المنزليّ في الصّباح والمساء. وثمّة ظاهرة قد تكون وقتيّة ولكنّها ذات مفعول قويّ تجعل المرأة عندنا ليست مثل نظيراتها في المجتمعات الأخرى ذلك أنّها ملزمة عُرفا بتوفير أسباب الرّاحة لكلّ مَن مرّ بذلك البيت المفتوح على مِصراعيْه، لكلّ زائر ومقيم من ذوي الحاجات والأقارب والأبعدين. وهي ملزمة بذلك حتّى ولو كان مُخِلاّ بالعمل الرّسميّ داعيا إلى التّقصير في واجبها نحو أسرتها ولن يغني عنها شيئا مَن تؤجّر من عمّال لخدمة المنزل لأنّ ذلك العمل واجب يقع على عاتقها وحدها قامت به أو ضيَّعته.

3- المرأة العاملة والمكتَب

لا يكاد البيت يرضى بخروج المرأة العامِلة منه لأنّه يرى نفسه صاحب الحقّ الأوّل ومن تعوّد منها على الرّعاية زمنا طويلا. بيد أنّ للمكتب في العصر الحديث نداءً يتعالى بإلحاح متى حان وقت العمل الرّسميّ حتّى لا تجد المرأة العاملة مندوحة عن أن تولي ظهرها لضجيج البيت وحاجاته المتجدِّدة إلى الرّعاية والإصلاح فتقرع باب المكتب بعد تأخّر يطول تارة ويقصر حسب حجم العوائق وطبيعة العمل المكتبيّ الممارَس. ولئن عُرِف عنها هذا التّأخُّر فقد عُرِف عنها في المقابل التّفاني في عملها متى زاولته عِلما بأنّ ثمّة فروقا فرديّة لا يمكن تجاهُلها. هذا مع أنّ التّأخُر ليس ذنبها وحدها فالتّأخّر عن العمل إنّما هو مظهَر من مظاهر الكسل النّاتج عن رواسب حياة البداوة والبطالة أيّام السّنوات

العجاف فقد تعوّدنا على أن لا نضع للوقت حسابه ينضاف إلى ذلك الرُّوتِينُ الإداريّ الّذي تَتَّسِم به أغلب ساحات العمل عندنا ممّا قد يترك غياب بعض العمّال بلا حساب فكم من عامل تخلَّف عن عمله الرّسميّ لا ليقوم بعمل آخر ولكن حِرْصا على استكمال (جيمات) الشّاي في أحد الصّالونات.

4- المرأة العاملة والَمْتجَر

ما إن تشعّبت الحياة في المدينة وظهرت الحاجة إلى المزيد من الكماليّات ومتابعة تيَّار الموضة ممّا لا بدّ له من دُخولٍ مرتفعةٍ يتضاءل أمامها حجم الرّواتب العادية تُضاف إلى ذلك الحاجة المِلحَّة إلى التّوفير في زمن غلاء الأسعار بشكل مذهل ما إن حدث كلّ ذلك حتّى أخذت مِهنة التّجارة تسترعي انتباه جُلِّ الموظَّفين وخاصّة المرأة نظرا لأنّ البضائع النِّسويّة عندنا ذات أرباح كثيرة. ثمّ إنّ طبيعة العمل التّجاريّ النّسويّ عندنا ذات إيجابيّات متعدّدة الوجوه فهو عمل مُرْبِح ومُرِيح يضمن التّواصل بين الصّديقات في جوّ حُرّ تُنعِشه الأحاديث الشَّيِّقة بعيدا عن ضجيج البيت ورسميّة الجلوس في المِكتب.

تلك إذاً أهمّ فروع النّشاط العمليّ لدى المرأة الموريتانيّة المتَمدِّنة أيّامَنا هذه فبينما هي تعيش صراعا بين طرفيْ ثنائيّة عمل البيت والمكتَب إذَا بها تضيف إليها فرْعا آخر إلى أن آل بها الأمر إلى صِراع مُتعدِّد الأطراف بحيث أصبحت غريزة حبّ المال والاستكثار منه تتنازعها مع الواجب الاجتماعيّ والواجب الوطنيّ.

وإذا كان لنا أن نعتزّ بهذه النّشاطات المتعدّدة لدى نسائنا الّتي تنُمّ عن مستوى معيّن من الوعي والرّغبة في تحقيق الوجود الفرديّ والجماعيّ فعلينا أيضا أن نعرف كيف تمّ التّنسيق بين أوجُه هذه النّشاطات. وهل يمكن تحقيق هذه المآرب في وقت واحد مع اختلاف أماكن العمل، وهل يصحّ العدل بينهما وهل جعل الله للمرأة أكثر من قلب واحد؟

إنّ تقلُّد المرأة عندنا لهذه المهامّ جُملة أمر لم يعُد ثمَّة شكٌّ فيه ولكن قد لا تستطيع تقدير وموازنة ما تُحقِّقه من نجاح في التّنسيق بينها.

العدل بينها أغلب الظّنّ أنّه لن يتمّ على الوجه الأكمل لأنّ العدل حيث هو غاية تُطلَب فلا تُدرَك. وفيما يتعلّق بمدى خصوصيّة المرأة عن الرّجل في القدرة على أخذ أشياء متعدّدة بعين الاعتبار

في وقت واحد فإنّ قوّة العزم قد تدفع كُلاًّ منهما إلى فِعْل ذلك. ومهما يكن من أمر فإنّ الإجابة على هذه الأسئلة ستدور في الفلك التّالي حتما:

أ سوف يرى بعض المتفائلين وممّن يناصرون قيام هذه التّعدُّدِيّة أنّه بتنظيم الوقت والتّفاني في العمل يمكن التّغلُّب على العراقيل وتحقيق المطامح على أحسن وجه.

ب وسيرى الطَّرَف المقابل أن هذه التّعدُّدِيّة سوف تشتِّت الجهد وتضيّع أوجه النّشاط أدراج الرّياح فلا تقوم لأحدها قائمة وهذه النّظرة هي الكامنة وراء فكرة ضرورة الاختصاص ولها أنصارها في العصر الحديث.

ج وبمجرّد أن يعرض هذان الرّأيان سينبثق من بينهما رأيٌ توفيقيّ يذهب إلى إقصاء أحد فروع النّشاط لكي يضمن ذلك ضربا من الانسجام للباقيَيْن. ولربّما رأينا النّشاط التّجاريّ قمينا بذلك لثانويّته ولكن لا أظنّ الواقع الاجتماعيّ الحاليّ يرضى بذلك لأنّ عقليّة الاستزادة من المال بأقلّ جهد قد ترسّخت في الأذهان إلى حدّ بعيد.

وهكذا فإنّ العودة إلى واقع المرأة العامِلة عندنا الآن تطرح إشكاليّة هذه التّعدُّديّة ولا ندري ماذا سينتج عنها في المستقبل فهي مظهر من مظاهر عدم الاطمئنان في مرحلة التّحوّل الّتي نعيشها منذ فترة بما فيها من خلخلة في الثّوابت وتغيّر في القيم فعسى أن يؤدِّي ذلك الاختلال إلى توازن جديد نطمئنّ إليه ويروي ظمأ الكلّ إلى الحياة الكريمة المتمدِّنة.

لأنّها امرأة

ليس من شيء أبعث على الارتياح من أن نجد كلّ صعب مُذَلَّلا أمامنا في مسيرتنا فلا يوصَد باب في وجهنا إلاّ فُتِح عن عَجَل ولا تنتصب أمامنا عَقَبة إلاّ نُسِفت بسرعة فنُحقِّق آمالنا وأحلامنا في جوّ يباركه الجميع.

بيد أنّه ما من شكّ في أنّ تلك اليد الّتي تذلِّل لنا الصّعاب هي يد تسعى من وراء خدماتها السّخيّة إلى هدف منشود ولربّما كان ذلك على حساب المصلحة العليا للمَعْنِيّ مادّيّاً أو معنويّا أو هما معاً عِلما بأنّ ذوي النّوايا الطّيّبة موجودون ولكن هل يحصل شيء بدون سبب؟

ولهذا فإنّ كلّ ما يحصل عليه الإنسان بدون جهد ينبغي أن ينظر إليه نظرة تحفُّظٍ ومراجعة. فثمّة حقيقة ثابتة هي أنّ الإنسان يأخذ بقدر ما يُعطي فإذا ظلّ يأخذ بدون أن يُعْطِي تَرَدَّى في هاوية الذُّلِ والتّبعيّة وحُرِم من نسيم الحرّيّة أحرى أن ينعَم بالسّعادة الّتي هي غاية تُطْلب فلا تُدرَك.

وانطلاقا من المسَلَّمة المذكورة فإنّ ما نحن بصدده في هذا المقام هو محاولة تسليط شعاع باهت على دور المرأة في عمليّة الأخذ والعطاء داخل مجتمعنا الحاليّ وما يعترضها من عراقيل في هذا المضمار فكيف ذلك؟

أوّلا: لعلّ الكلّ قد ملّ الحديث عن المرأة بعد أن أصبح هواية لدى أغلب حَمَلة الأقلام عندنا وكأنّما هي كائن غريب اكتُشِف أخيرا ولا تدخل همومه ضمن هموم الإنسان الموريتانيّ بوجه عامّ مع أنّه اهتمام جدير بأن يُذكَر ويُشكَر في نظرنا باعتباره وَعْياً ولو جزئيّا لهموم المجتمع.

لقد عانت المرأة حياة الأخذ بدون عطاء بسلبيّاتها الجمّة في غالبيّة المجتمعات البشريّة خاصّة المتمدّنة منها فظلّت كائنا مُنفعلا خاضِعا يتلقّى العطف والرّحمة برضى وخشوع فإن هي أعطت فائتمارا بأوامر غيرها وتأخذ ما تُمنَح فترضى.

ولعلّ من حسن حظّ المرأة عندنا أنّها كانت مشاركة إلى حدّ ما في دينامِيّة الأخذ والعطاء بشكل عامّ في مجتمعنا البدويّ القديم حتّى إذا ما تحوّلت الحياة بسرعة إلى ما هي عليه الآن وأصبح

لزاما أن تتعاضد السَّواعِدُ من أجل بماء مجتمع متحضِّر كانت مشاركتها أمرا طبيعيّا من أغلب وجوهه إلاّ أنّ رواسب تبعيّتها التّليدة وعدم فهْم مرامي الأمور على حقيقتها في الجوّ الجديد المختلف كلّيّا عن السّابِق عَرْقَلاَ مسيرتها أكثر من أخيها الرّجل فالتّمدْرُس مثلا، وهو الطّريق الأمثل للمشاركة في البناء، شمل الأولاد قبل أن يشمل البناتِ وظلّت النِّسَب متفاوِتة تفاوُتا بَيِّناً إلى حدّ الآن رغم أنّ العدد الإجماليّ للبنات يفوق عدد الأولاد في مجتمعنا جُملة.

وعليه فقد ظلّت المرأة في مؤخِّرة القافلة فظلّ عطاؤها محدودا يقتصر على ما كانت تبذله في المجتمع التّقليديّ من نشاط طبيعيّ داخل الأسرة مع تفاوُت ذلك وتبايُنه بالنّسبة لأقاليم البلد وفئاته ولم تكن الطّليعة النّسويّة المثقَّفة لتمثِّل استثناءً يُذكَر نظرا لقلّة العدد وهَشاشة المحصول المِعرفيّ وسيطرة الرّؤية التّقليديّة للأمور إلى عهد قريب.

وهكذا فقد ساهم هذا التّأخّر عن الرّكب في إثارة مشكلة تخلّف المرأة باعتبارها عائقا عن التّقدّم فأصبح الحديث عنها يتصدّر مواضيع النّقاش في كلّ جلسة وتتوشّح الصّحيفة اليوميّة "الشّعب"[1] بعناوينه منذ فترة في عمليّة الأخذ والعطاء داخل المجتمع الجديد خاصّة إذا ما علمنا أنّ هذه النّقاشات قلَّما تحظى باهتمامها أو مشاركتها وإنّما تُثار القضايا عادة وتُتَبادل الآراءُ على حين غياب منها وتقترح الحلول انطلاقا من مدى جدوى ما تكتسبه المرأة من خبرة بالنّسبة لغيرها وليس لها هي كإنسان يجب أن ينعم بنور المعرفة ويجني ثمارها فيحقّق وجوده الفرديّ والجماعيّ.

وليس غريبا أن ينظر الطّرف الآخر إلى المرأة من هذا المنظار النّفعيّ فتلك شيمة الإنسان فهو مجبول على حبّ المنفعة والبحث عنها أنّى وُجِدت وحريّ بالمرأة أيضا أن لا تعترض على هذا المنطق ما دام لا يتنافى مع مصلحتها لأنّها ليست نباتا صحراويّا يعيش بمفرده وإنّما هي من هذا المجتمع تنمو فيه وتتعامل معه غير أنّ هذا التّعامل قائم على تعادليّة الأخذ والعطاء الّتي ظلّت تعاني اختلالا لم يسمح بالتّقدّم لجملة أسباب متشابكة منها ما ذكر آنفا من فقدان المؤهّلات النّظريّة اللاّزمة لدى أغلبيّة نسائنا تضاف إلى ذلك عراقيل تختلف في طبيعتها عن العراقيل السّابقة وإن كانت تربطها بها وشائج إنّها عراقيل تشكّل عقبة كأداء في وجه كلّ امرأة متطلّعة لاكتساب الخبرة والمشاركة في الإنجاز انطلاقا من وعي لهموم المجتمع. إنّها عراقيل ذات وجهين متلازمين ظاهر وباطن.

[1] آنذاك لا توجد صحيفة يوميّة سوى الشّعب.

أمّا الأوّل فيتمثّل في الوصاية العمياء على المرأة فهي لا تكاد تبدأ محاولة شقّ طريقها اعتمادا على جهدها الخاصّ حتّى يتطوّع لها كلّ من مرّت به من أدلّة "طرق الرّشاد" فيُذلِّل لها الصّعاب رحمة بها ويتحمّل المشقّات في سبيل راحتها ويؤشّر لها على المشروع والمحظور انطلاقا من حاجة في نفس يعقوب...ويعود إليها بالنّبإ اليقين ولو كان أحوج النّاس إلى معرفة طرق الرّشاد وأسباب الهدى ممّا لا يدع مجالا لتقدير مدى قدرتها على ما كانت بصدده أصلا.

وأمّا الباطن فيتمثّل في النّظرة الّتي تتولّد لدى الرّأي العامّ ممّا سبق لتذكي نار حرب نفسيّة شعواء ضدّ المرأة وهي أنّ أيّ مكسب تحصل عليه يعتبر هديّة تقدّم لها نتيجة تعاطف وجدانيّ خاصّ لأنّها امرأة حتّى ولو كانت حصلت عليه بجدّ واجتهاد وتلقّت ثمرة عملها ممّن لا يدري هل هي رجل أم امرأة (كما يحدث في الامتحانات العامّة مثلا).

صحيح أنّ الرّوّاد أدلّة اللاّحقين وأنّ التّسهيلات ضروريّة لمن يُقبِل على إنجاز عمل ما وأنّ التّعاون أساس البناء ولكنّ التّعاون يقتضي وجود طرفيْن فاعليْن فإذا ما تطوّع أحد الطّرفين بحمل نصيب الآخر أبطل عمل صاحبه وأجهد نفسه بما قد يضطرّه إلى ترك العمليْن معا.

إنّ المرأة في هذا الصّدد تصبح أمام خيار بين أمور ثلاثة لعلّ أحلاها مرّ:

أ أن ترضى بالدُّونيّة وتنتظر ما تقدّمه لها الأيادي السّخيّة؛

ب أن تقوم بردّة فعل عنيفة تسلمها إلى شذوذ عن النّسق الاجتماعيّ الّذي لا يصحّ إصلاحٌ إلاّ بالانسجام داخله.

ج أن تنسجم مع الموقف محاوِلة تجاوزه بخطى وئيدة.

ومِن الملاحظ أنّ الأوّل يمثّل اختيار المرأة الّذي دأبت عليه في غالبيّة المجتمعات التّقليديّة ولا يخفى ما فيه من اختلال واضح لميزان الأخذ والعطاء.

أمّا الثّاني فهو موقف متحمِّس يُعتَبَر في الطّرف المقابل لسابقه تماما ويعمل على تقويضه من أساسه.

وأمّا الثّالث فهو موقف توفيقيّ متَّزِن بقدر ما هو منهزم أمام إرادة المجتمع وهو الموقف الّذي يُعَلَّق عليه الأمل في الإنجاز من بين الثّلاثة إن صحّ ذلك.

ولعلّ من أهمّ ما يُعَوَّل عليه في هذا المضمار هو أن يعي كلّ من الطّرفين حقيقة تثبتها الحكمة الشّعبيّة عندنا وهي أنّ من لم يمارس العمل ويبذل الجهد لن يجني ثماره ولن يَنْعَم بالرّاحة "الْمَعْذُور ماهْ افْ راحة" وانطلاقا من وعي الحكمة يتعاون الجميع على بناء صرح مبنيّ على أسس قويّة.

وفي الأخير لنا أن نتساءل هل ستتجاوز المرأة عندنا عقدة الشّعور بالنّقص وتشقّ طريقها غير آبهة بمختلف العراقيل أم أنّها ستبقى كما كانت لأنّها امرأة؟

منتدى الشّعب (1989)

المرأة والشّعر في بلاد المليون شاعر

تندرج علاقة المرأة بالشّعر في إطار علاقة الإنسان به عامّة فالشّعر فنّ جميل من أقدم الفنون الجميلة الّتي عرفها الإنسان قناة للتّعبير عن مشاعره من حزن وفرح وانفعال بالجمال وتوْق إلى السّعادة والحرّيّة ولم يزل الشّعر صفوة الإنسان العربيّ من بين الفنون الأدبيّة والفنون الجميلة عامّة فالشّعر ديوان العرب كما قيل قديما.

ولما كانت المرأة كائنا إنسانيّا له مشاعره وطموحاته فقد ظلّت علاقتها بالشّعر قائمة في مختلف الأمم عبر التّاريخ بل إنّ علاقتها تُعْتَبَر علاقة مزدوِجة لأنّها بالإضافة إلى أنّها تُنتِجه وتنفعل به فإنّها مصدر إلهام لغيرها كذلك.

ولكن ما يثير الاستغراب هو اختفاء هذا الفنّ في الوسط النّسائيّ الموريتانيّ بحيث ظلّ الشّعر في بلاد المليون شاعر فنّا رجوليّا خالصا كالفلسفة عند اليونان.

فلماذا تنحصر علاقة المرأة بالشّعر عندنا في كونها مصدر إلهام ومستهلكا منفعِلا فحسب؟ لا بدّ أنّ هنالك أسبابا عديدة عملت على وجود هذه الظّاهرة واستمرارها ولعلّه من الصّعوبة بمكان استجلاء جميع هذه الأسباب وتسليط الضّوء عليها في مقالٍ كهذا ولكنّنا نعرض أهمّها حسب رأينا.

أوّلا: أنّ الشّعر ظلّ مرتبِطا في ذهن العربيّ بالخروج عن المألوف وخرق الأعراف والنّواميس الاجتماعيّة لذلك قلَّ نصيب الحرائر من الشّعر عند العرب ولم توجد مجموعة من النّساء الشّاعرات في آن معا إلاّ في العصر العبّاسيّ عندما وَجَدت القِيان وسطا متحرّرا وقد عُرِفت شواعر أندلسيّات في أواخر الدّولة الأمويّة هناك وكنّ حرائر ولكنّهنّ متحرّرات أيضا فكأنّ الشّعر النّسائيّ لا ينمو إلاّ في وسط متحرّر.

ثانيا: افتقار المرأة عندنا إلى الأسس المعرفيّة الّتي تُعْتَبَر جسرا لا غنى عنه للعبور إلى نَظْم الشّعر الفصيح فقد ضاعت منها السّليقة العربيّة تحت تأثير اللّهجات الأخرى وتقطّعت أسباب الحصول على الثّقافة اللّغويّة ا لمقننة بسبب شحّ الظّروف لأنّ الوسيلة المثلى للحصول على المعارف

هي "المِحْظَرة" وهي لا تجد الفرصة للنّهل من معينها في غالب الأحيان وهذه الوضعيّة هي الّتي ولّدت "التّبراع" والشّعر الحسّاني في بلادنا.

صحيح أنّ من بين النّساء مَن يولدن في وسط مثقَّف ولكنّ حظّ المرأة من الثّقافة لا يتجاوز عادة فرض العين إلاّ إذا كانت طموحة جدّا ثمّ إنّ الأوساط المتعلّمة أكثر محافظة وتزمّتا من الأوساط الأخرى غالبا.

ثالثا: حياة عدم الاستقرار وأعباء العمل المنزليّ ممّا لا يدع مجالا للتّفكير في ممارسة الهواية وتعلّم غير الضّروريّ ولعلّ هنالك سؤالا يطرح نفسه: لماذا لا تحول هذه الوضعيّة دون ممارسة الرّجل للشّعر علما بأنّه يتحمّل العبء الأكبر من الأعمال المذكورة.

الجواب: أنّ الرّجل يجد فسحة من عمره هي فترة المراهقة والشّباب يبحث فيها عن تحقيق ذاته ويسافر من أجل تحصيل العلم ويدخل جوّ المحظرة بعيدا عن السّيطرة المباشرة للأسرة وفي جوّ المحظرة المتحرِّر يبدأ ممارسة الشّعر وتعاطيَه مع زملائه عادة أمّا المرأة فإنّها لا تحصل على مثل ذلك.

رابعا: نظرة المجتمع لشعر المرأة، وهذا العامل من أهمّ العوامل في نظرنا، بل إنّها كلّها تتمَحْوَر حوله وحول العامل الّذي سوف نذكره بعده فشعر المرأة سخف وهذر وطموح غير مشروع حتّى ولو كانت تحسّ بحاجة إلى التّعبير عن مشاعرها وتتوفّر على إمكانيات تعبيريّة قمينة بذلك ومن ثَمّ فإنّ هذا الكبْت قد تتولّد عنه قناعة قويّة بمنزلتها ولن تطمح إلى تجاوزها.

هذا ولا يغيب عن ذهننا أنّ الأوساط متباينة من حيث التّحرّرُ وعدمه خاصّة وأنّ مجتمعنا مجتمع فئويّ ولكنّ الكلّ مؤمن بأنّ النّظرة الصّحيحة هي تلك الّتي يتبنّاها الوسط المحافظ فمثلا "التّبراع" يُعْتَبَر فنّا شعريّا عند المرأة الموريتانيّة كما أوردنا ولكنّه لا ينمو في الأوساط المحافظة وإنّما ينمو عند الأوساط المتحرّرة في أسفل السُّلّم الاجتماعيّ ومع ذلك فإنّه رغم أنّ الذّاكرة الشّعبيّة تَحَفّظ منه الكثير إلاّ أنّها لا تنسبه إلى مَنْتِجاته وإنّما هو مجهول النّسبة نظرا لأنّ المجتمع يعمل على ذلك.

خامسا: سبب متّصل بطبيعة الشّعر العربيّ كما أنّه وثيق بسابقه وهو أنّ الشّعر العربيّ ظلّ رهين أغراض محدّدة مسبقا تنبثق عن غرضيْن محوريَّيْن هما: المدح والهجاء فكيف للمرأة في مجتمع رجوليّ يريد منها أن تكون قنوعة بما قسم الله لها أن تتغزّل أو تمدح من أجل التّكسّب أو تهجو

والهجاء رذيلة بالنّسبة للرّجل فما بالك بالمرأة أو تفتخر وهي امرأة وهذا ما جعل شعر المرأة محصورا في دائرة الرّثاء أو الابتهالات والأدعية عندنا فكان قليلا إلى حدّ النّدرة.

سادسا: هنالك سبب آخر يراه بعض مثقّفينا الآن وهو أنّ الشّعر تعبير عن تأزُّم معيّن والمرأة لم تعانِ عندنا، لم تشعر بأيّ تأزُّم لأنّها لم تُعانِ من ضرب الحجاب عليها وهذا الرّأي مناقض للرّأي السّابق الّذي أوردنا عليه أمثلة من التّاريخ وهو أنّ شعر المرأة لا ينمو إلاّ في وسط متحرّر وهو أيضا رأي يأخذ مستنده من رؤية "افْرُيْد" للفنّ والحضارة بل والإبداع الإنسانيّ كلّه على أنّه تصعيد عن رغبات مكبوتة.

ولكن ما دام الإنسان رهين منزلته المعطاة وما دامت الحِكَم، وهي صفوة التّجارب، تقول "ذو العقل يشقى في النّعيم بعقله" و"تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن" فإنّ الإنسان وخاصّة المرأة لا بدّ وأن يشعر بحاجة إلى التّعبير فإمّا أن يعبّر أو لا يعبّر.

تلك إذاً أهمّ الأسباب الّتي استطعنا استجلاءها فما هي الأسباب الأخرى وما هي أسباب تَوْق بعض النّساء حديثا إلى خوض التّجربة الشّعريّة في بلادنا؟

ملحق الشّعب (8 مارس 1989)

العنصر الحاضر الغائب

أن ترى من كلّ لون أسرابا تجوب الشّوارع وتدوّيَ بأذنك الزّغاريدُ متى مررتَ بالقرب من تجمّع جماهيريّ (مهرجان) فذلك أمر قد تعوّدتْ عليه منذ أيّام البلديّةُ الأولى لكن أن تشاهد عنصرا نسويّا فاعلا يتصدّر لوائح التّرشّح فذلك ما لن يقودك إليه البحث والتّنقيب فبمجرّد انتهاء الجولة وهدوء الحناجر سيبقى حضور العنصر المذكور تاركا وراءه التّساؤل لماذا هذا الغياب؟ أتراه يكون ثمّة تصالح مسبق يقضي بالتزام مقولة "منّا القادة ومنكنّ الجمهور" أم أنّ ثمّة أسبابا أخرى؟

أجل إنّه تساؤل طُرِح بَصِيغ مختلفة في وسائل الإعلام المكتوبة أخيرا ذلك أنّ استبعاد العنصر النّسويّ من حلبة الصّراع الدّيمقراطيّ أمر لا تقضي به النّصوص القانونيّة المعتمدة بحال من الأحوال ولا يبدو أنّ الجهات المنظّمة للعمليّة تقصد إليه قصدا وإنّما جرى وكأنّه شيء طبيعيّ فلماذا؟

إنّ عزل هموم المرأة عن هموم الإنسان ككلّ في هذا البلد يُعْتَبَر من غير الوارد طالما أنّ العنصر النّسويّ لا يشكّل كيانا مستقلاّ بهمومه عن باقي المجتمع وإنّما هو جزء من بنية متكاملة الأجزاء تحتاج إلى التّوازن والإصلاح ويضربها الاختلال والفساد لكن على الرّغم من ذلك فإنّ من تجاهُلِ الواقع أيضا أن نعتبر أنّ الجنسيْن في بلدنا يشكّلان نصفين متكافئين من حيث التّكوين والفرص ومن ثَمَّ فإنّ ثمّة بعض الظّواهر المتّصلة بخصوصيّة لدى العنصر النّسويّ تجعل تسليط الضّوء عليها منفردة أمرا مشروعا.

وإذا كان ذلك كذلك فلا غضاضة في أن نقف وقفة تأمّل أمام ظاهرة الغياب المذكورة هذه على أن نستجلي بعض أسبابها هذا طبعا بدون أن نتعرّض إلى نفي بعض التّهم الّتي تُوَجَّهُ للعنصر النّسويّ في بلدنا والمتعلّقة بتدنِّي مستوى الوعي في صفوفه والشّعور بالدّونيّة والصّبيانيّة والغوغائيّة في المواقف.

كلاّ فليس ذلك من هدف هذا المقال كما ليس من هدفه أن يزعم أنّ ثمّة عزوفا أو تعفّفا من طرف النّساء بهذا الصّدد وإنّما حسبه أن يقدّم بعض الأسباب فما هي تلك الأسباب؟

إنّ ظاهرة كهذه لا بدّ أن تكون متشابكة الأسباب إذ أنّ جذورها لا بدّ ضاربة في أعماق البِنية التّصوُّريّة لدى المجتمع ممّا يجعل مسطرة أسبابها لا يكاد ينعزل بعضُها عن بعض بسبب الارتباط الوثيق بينها جملة.

ومهما يكن من أمر فإنّ هذه الظّاهرة تُعتبَر مظهرا من مظاهر غياب العنصر النّسويّ على مستوى صنع القرار السّياسيّ الرّسميّ في البلد وهو أمر راسخ القدم في أرضيّتنا فقد ورثناه عن عهود البداوة حيث لم يكن للمرأة حضور آنذاك في مجلس الحلّ والعقد في الحيّ البدويّ ولم تكن ذات دور في الأمور العامّة من تحالفات ونزاعات وحروب وإنّما يترك ذلك لربّ السّيف والقلم وهي إن كان لها رأي سديد فإنّما تتّخذ لها قناة من أحد المشاركين الفعليّين هذا بالرّغم من حضورها في النّشاطات الاجتماعيّة الأخرى، خاصّة المرأة في بلادنا.

فتلك هي منزلتها في المجتمع البدويّ القديم وجليّ أنّ مجتمعنا ما زال متشبّثا بكثير ممّا دأب عليه في الماضي.

وانطلاقا من هذا الرّافد التّاريخيّ الّذي يمثّل العامل المحوريّ العامّ يمكن أن نفصل العوامل الأخرى المباشرة ذات الصّلة الوثيقة به على النّحو التّالي:

أوّلا: دور الزّعامات التّقليديّة في كسب الرّهان نتيجةلعدم انهيار البنية الاجتماعيّة التّقليديّة ذات الشّكل الهرميّ القائم على نظام فئويّ وقبليّ يتوزّع المجتمع وهذه الزّعامات طبعا لن تظاهر امرأة تريد التّرشّح أحرى أن ترشّحها أصلا والقاعدة الشّعبيّة العريضة ما زالت تنضوي وراء تلك الزّعامات.

ثانيا: قِصَر عمر التّأطير النّسويّ في البلد فالمستوى المعرفيّ الأكاديميّ والتّجربة الطّويلة في النّشاط السياسيّ اللّذان قد يشكّلان ورقة جديدة لدى العنصر النّسويّ لم يجدا بعد المهلة الزّمنيّة الكافية لتوفّرهما بشكل ناضج مع أنّها تعتبر ورقة غير رابحة في المعركة الجديدة نظرا للسّبب المذكور آنفا.

ثالثا: عدم تعيين عنصر نسويّ في السّابق على رأس دائرة جهويّة أو في منصب يجعله على صلة بهموم الجماهير فليست ثمّة تجربة من هذا النّوع تخوّل للمواطن أن يتبيّن ما إذا كانت هناك جدارة أو عدمها ممّا يجعل الأمر يتطلّب مجازفة غير مأمونة النّتيجة ذلك أنّ المناصب الّتي تتقلّدها

المرأة عادة في بلادنا إمّا تشريفيّة بعيدة عن هموم المواطنين وإمّا هامشيّة والمناصب الحسّاسة ما زالت غُفلا من ذلك العنصر رغم توفّره على بعض الكوادر ذات الجدوائيّة الملاحظة.

رابعا: كثرة مشاغل الطّليعة النّسويّة في جوّ المرحلة الانتقاليّة الحاليّ ذلك أنّ المرأة ربّة بيت على الطّريقة التّقليديّة وموظّفة وتاجرة في نفس الوقت والقيام بهذه الأدوار المتعدّدة يجعل كاهلها ينوء بالعمل الّذي لا تستطيع الاستغناء عنه ولا التّفكير بزيادته.

خامسا: تدنّي سمعة النّشاط السّياسيّ النّسويّ جماهيريّا نتيجة مقاطعة غالبيّة الأطر النّسويّة له واعتماد الجماعات السّياسيّة على العناصر النّسويّة غير المؤهّلة معرفيّا باعتبارها أبواق دعاية لا أكثر.

سادسا: عدم شعور الطّليعة النّسويّة بأنّ العنصر النّسويّ يمثّل كيانا مستقلاّ في همومه عن المجتمع عكس ما يراه آخرون ممّن يكادون يحوّلون هموم المرأة أو مشكلة المرأة على حدّ تعبيرهم إلى همّ من هموم الأقليّات في حين أنّها بحمد الله تمثّل أكثر من نصف المجتمع.

تلك إذاَ أهمّ الأسباب الّتي تمَّ استجلاؤها في هذه الدّردشة ولعلّ الحقبة الزّمنيّة المقبلة كفيلة بأن تعمل على تلاشي هذه العوامل شيئا فشيئا فعسى أن يكون ناموس التّطوّر لصالح إقامة توازن جديد يضمن السّعادة للإنسان ككلّ في هذا البلد.

الشّعب، الثّلاثاء 31 مارس 1992

واغوثاه الويسكي في البيوت!

لئن كان الولع بالجديد والجري وراء الموضة من سمات المجتمع الحديث الّتي ولدها دوران عجلة الاختراع والتّطوّر فإنّ الاستهلاك والتّهالك أسباب الرّفاه أصبح من سمات الشّعوب المتخلّفة خاصّة إذ هي تتلقّف بأيديها كلّ ما أنتجته العبقريّات الخلاّقة للشّعوب المتقدّمة ولربّما اندفعت إلى استهلاكه قبل أن تميّز الغثّ من السّمين والملائم لخصوصيّاتها الحضاريّة من غيره انطلاقا من أنّ كلّ جديد مفيد أضف إلى ذلك أنّ ثمّة كلفا بالتّحرّر وحماسا لزعزعة الثّوابت وفكّ القيود قد يجرف تيّاره البعض إلى معمعان الجريمة بمفهومها المتعارف عليه عالميّا بل يجعله يُلْبِس الشّرّ لباس الخير للأغبياء والقاصرين كيما يدخلوا معه في سرداب واحد.

وليس غريبا على مجتمع كمجتمعنا – يحمل على كاهله قرونا عديدة من البداوة وشظف العيش – أن ينغمس في ملذّات الحياة المدنيّة الحديثة بيد أنّ ثمّة خصوصيّة جعلته يلتقط أنفاسه في غمرة الانبهار ليضع كلّ جديد على المحكّ الإسلاميّ المتأصّل في أرضيّتنا.

ولعلّ انطلاق مجتمعنا في رأيه العامّ من أنّه "لا يجوز لأحد أن يُقْدِم على أمر حتّى يُعْلَمَ حكمُ الله فيه" هو ما عمل على وجود ما يُعْرَف بظاهرة هجرة الجسد إلى الخارج وهي ظاهرة عُرِفت في الأعوام الأخيرة غير أنّ الهجرة المذكورة، وإن كانت تؤكّد رفض المجتمع للممارسات المشبوهة بين ظهرانيه، فإنّها أصبحت تغذّي سوق الانحراف الوليدة في هذا المجتمع وذلك تحت أقنعة مختلفة تلبية لحاجات السّياحة، التّجارة وهي مجالات صالحة لأن تستغلّ في وجه محمود كما يمكن أن تُسْتَغَلّ في أوجه الفساد لذلك اختلط الحابل بالنّابل وصعب تمييز المصلِح من المفْسِد (واللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) فطفق المتشدّدون "المتزمّتون" يرمون كلّ مشارك في الحياة العامّة بالممارسات المشبوهة انطلاقا من عمليّة استقراء ناقصة يحلو لهم أن يعمّموها على الكلّ في حين حرص آخرون على تبرير الواقع انطلاقا من نفي العصمة عن غير الأنبياء والحكم بالظّواهر.

وسواء بالغ الأوّلون في التّشدّد أو بالغ الآخرون في إلقاء الحبل على الغارب للمنحرفين فإنّ نبتة الانحراف تنمو بشكل سريع بين ظهرانينا وكيف لا وهي تتعهّد بالغذاء والأسمدة يوما بعد يوم كيما تقف دوحة منيعة في وجه "الزّعازع".

ألا تدري عزيزي المواطن أنّ المخدّرات بعد أن أثبت الطّبّ الحديث خطورتها على الصّحّة وعزف عنها كثير من غير المسلمين حرصا على توازن الصّحّة الجسميّة والعقليّة إذا بها تفِد علينا في عقر دارنا نحن المجتمع المسلم الّذي لم يعرفها قطّ في تاريخه بل ظلّ يعتبرها آية ساطعة على كفر صاحبها؟

فمنذ فترة ظهر تعاطي المخدّرات في بلدنا في صفوف الأحداث والمراهقين وبعض الشّباب ممّن عاشوا في الخارج بعض الوقت أو اتّصلوا بأجانب في البلد واليوم ها هو يظهر في صفوف النّساء وتنتقل عدواه من الأحياء الرّاقية إلى الأحياء الشّعبيّة فقد شاع أخيرا في أوساط نساء السّوق في مجالس الشّاي و"لمگزانة"[1] أنّ جرعات قليلة من الويسكي تكفي لصفاء لون البشرة وتبديد البُقع السوداء (الكلف) الّتي تظهر أحيانا على الخدّين والوجنتين بسبب اختلال الغذاء أو التّعرّض لأشعّة الشّمس الحارقة.

نعم إنّها دعاية تجد آذانا صاغية عند الكثيرات نظرا لتعلّقهنّ بأسباب الجمال ورغبتهنّ في صفاء لون البشرة الّذي هو عنوان "التّحضّر والتّرف". طبعا لا يخفى ما لهذه الدّعاية من الأهداف ذلك أنّ استخدام الجرعات مرّة بعد مرّة تنتُج عنه بالضّرورة عادة الإدمان فلا يجد المرء أو لا تجد المرأة مندوحة عن أن تقرع الأبواب لاهثة بحثا عن هذه المادّة الّتي سيصبح الحصول عليها شغلها الشّاغل ولو تطلّب الأمر أغلى الأثمان.

ولعلّ من الطّريف في هذا المضمار أنّ بعض العجائز أصبحن يحاولن أن يبرِّرن هذا السّلوك دينيّا بقولهنّ "إنّ الخمر للغصّة مباح وإنّه ليست ثمّة غصّة أشدّ خطرا على المرأة من البقع السّوداء في وجهها (إيخصّر لونها)" فسبحان الله هذا من باب القياس إذاً فماذا سيقول الأصوليّون؟

إنّ هدف هذا المقال ليس بالضّرورة تبيين موقف الشّرع من هذا السّلوك فلعلّ موقفه أجلى من أن يوضَّح وليس تبيين خطورة المخدّرات من النّاحية الطّبّيّة فالعالِم الشّرعيّ والطّبيب المختصّ أولى

[1] گلزانة: لعبة شعبيّة تُستَخدَم عند النّساء لقراءة الحظّ.

بذلك لكن أرجو أن تسمح لي سيّدتي المرأة الموريتانيّة بأن أقول لها إنّ الجمال سرّ قد لا تترجمه البشرة وأنّ المناخ الصّحراويّ بشمسه الحارقة وسمومه يصعب معه صفاء اللّون ولن تكون بشرة بنات جنوب الصّحراء الكبرى مثل بشرة بنات جزر الخالدات أو بشرة سكّان القطب الشّماليّ.

وكلّ شعب يستمدّ قِيمه الجماليّة من طبيعته فإيّاك أن تكوني مثل الغراب فتختلّ مشيتك وتترنّحين سكّيرة بحثا عن أناقة زائفة لا طائل من ورائها فالجمال سيبقى نسبيّا ما دامت السّموات والأرض.

وفي الختام لا أملك إلاّ أن أردّد مع ابن الورديّ: كَيْفَ يسْعَى في جنون من عقل؟

وأكرّر: واغوثاه الويسكي في البيوت!

الشّعب، 1992

بنت ديلول[1] وأشواك الدّرب

[1] ديلول: بطل أسطوريّ موريتانيّ.

لم أكن أتوقّع أن تضيع منّي حكمة جدّي الّذي ادّعيت الانتساب إليه التماسا لفيض حكمته المعروفة، حكمته الّتي التقطها بذكائه الفطريّ النّفّاذ جوهرة نادرة من هذه الصّحراء فجعل يصقلها ويهذّبها بتجاربه حتّى عادت مشعلا وهّاجا على طريق الرّشاد.

إنّني يوم قرّرت الانتساب إليه ما كنت إخال أنّني سأفقد هذا اللّقب بحيث لا يعود له معنى بالنّسبة لي أو ينتزع منّي بأيّ دعوى خاصّة أنّ حمّى الرّجوع إلى الجذور مهما انقطعت وشائجها تغزو أبناء جلدتي منذ فترة من باب تأصيل الكيان واقتطاع المكان من الخارطة الجديدة الّتي يتّهمها بعضهم بأنّها مرسومة على ثوب خلِق هذا بالرّغم من كونها على ما يبدو مرسومة بالحبر اللاّصق فعلا.

المهمّ أنّني فوجئت فور انتحالي لهذا الاسم أو اللّقب بأصابع الاتّهام تتّجه إليّ على أنّني معجبة بقدراتي العقليّة أكثر من اللاّزم وأنّني مغرورة فما كان منّي إلاّ أن حاولت تبرئة ساحتي مدّعية أنّني متطفّلة على حكمة هذا الحكيم فقط بَيْدَ أنّني في الآونة الأخيرة عندما كانت تضيع منّي حكمة جدّي المزعوم عرفت أنّ لذلك الاتّهام ما يبرّره بل إنّني أصبحت أحيانا أخجل من هذا اللّقب الّذي لا معنى له في الواقع وصرت أدرك أنّ ديلول لو كان حاضرا أو علم بانتحالي له تنازل عن وقاره حتّى رجمني أو على الأقلّ أثار الرّمال في وجهي وتمثّل بقول القائل:

ألاَ إنَّما السّكّاك[1] في وجْهِهِ يُحْثَى *** ولا سِيّما إنْ كان سِكاكَةَ أُنْثَى

لقد أصبحت أسبّ الغرور وألعنه لأنّه سبب الورطة الّتي أنا فيها فأنا يا سادتي منذ أن حصلت على تلكم الكرّاسة الجميلة ذات الخاتمَيْن الوهّاجيْن في الطّرفيْن وأنا أعتقد في قرارة نفسي أنّني أصبحت في عداد المثقّفين من أبناء بلدي وأنّني بحكم ما قضيت فوق الكراسي وما اطّلعت عليه من مصادر الثّقافة أصبحت مثقّفة جدّا وواعية جدّا كأحسن ما يكون المثقّف الموريتانيّ في هذا

[1] السّكّاك: المتطفّل على مجلس الشّاي باللّهجة المحلّيّة.

العصر ويوم جلست إلى مكتب الوظيفة رميت بروح التّلمذة في سلّة المهملات وأصبحت لا أتحرّج من الدّخول في حلقات النّقاش مع المسؤولين في إطار العمل وصرت أعرض آرائي في كلّ ما يعرض أمامي فكلّ من حولي زملاء عمل وكنت اعتقد أنّ السّفينة تمضي على ما يرام لكنّني لم ألبث أن شعرت بها تترنّح فوق الأمواج بقسوة تُنْذِر باحتمال الغرق. استنجدت بحكمة الجدّ ديْلول إلاّ أنّها لم تسعفني هذه المرّة ولاحظت أنّها ضاعت منّي بمجرّد أن اصطدمت بأهل الحساسيّة المفرطة تجاه المرأة وما يتّصل بها. إنّهم قوم لا يعرفون ما شأن المرأة في أمور العمل الإداريّ أو الثّقافيّ أو صياغة أيّ قرار مهما كان بسيطا، تضيق صدورهم وتتلاحق أنفاسهم ويمقتون الجدّ عندما يصدر رأي جادّ أو عمل بنّاء من أيّ امرأة وعندما يحاولون الخضوع للأمر الواقع والتّعامل معنا تعزّهم معرفة التّصرّف المناسب فتارة يُبْدون عطفا وتشجيعا لا مُبَرّر له طالما أنّنا نشكّل فريق عمل واحد وتارة يتشنّجون ويثورون مدّعين أنّنا نمارس عليهم ضغوطا لا يستطيعون تحمّلها.

فكّرت في أنّ الأمر لا يعدو كونه عدم تعوّد على المعاملة مع الجنس الآخر في جوّ العمل الجادّ أو أنّ بعض من اصطدمنا معهم لم تكن في وسطهم الخاصّ نساء على حظّ من المعرفة والوعي أو المشاركة في الرّأي ممّا كان له انعكاس على تعاملهم معنا فهي إذاً مسألة عدم تعوّد لن تلبث أن تتلاشى شيئا فشيئا فعلينا إذاً أن نتحلّى بالصّبر والمرونة كي نتجاوز الأمر بدون ردود أفعال طائشة ولا تعقيد يزيد الطّين بلّة لكنّ بعضهم الآخر ظلّ عاجزا عن أن يخطو خطوة إيجابيّة إلى الأمام في التّعامل معنا.

إنّ هذه الشّرذمة لا تستطيع بحال من الأحوال أن تفهم معنى الزّمالة بين الجنسين ولا أن تقرّ بها حقّا فالعلاقة بالجنس الآخر عندهم إمّا علاقة وصاية في إطار الأسرة أو القرابة أو علاقة ذاتُ بُعْدٍ واحد خارجها.

وطبيعة الخطاب الّذي يوجّهونه إلى المرأة تتحدّد انطلاقا من ذلك فحسب فكلّ امرأة خارج هذا الإطار هي امرأة مسترجلة يجب أن يوقف في وجهها حتّى تعود إلى جادّة الطّريق بأيّ وسيلة ولو استدعى الأمر أن يقام بحملة إعلاميّة في الصّالونات والدّهاليز الإداريّة ضدّها تنعتها بأشنع الأوصاف الخُلُقيّة والخَلْقيّة.

حاولت ببقايا حكمتي الموءودة إقناع هؤلاء بأنّ مصلحة العمل الوطنيّ تتطلّب الاستمرار سويّا بدون صراع غير الصّراع البنّاء وأنّه ينبغي أن نعمل بروح الفريق المتعاون وأن نتناسى اختلاف الأجناس.

والمشارب فإذا أنا أنفخ في قربة خرقاء وإذا بي أدور في دائرة الغرور بعرضي لهذه الآراء فتيقّنت أنّ حكمة الجدّ ضاعت منّي وعزمت أن أبقى في مواجهة التّحدّيات وأن أدعو لزملائي بوجود مجتمع حديث خال من النّساء، طبعا ليس كلّ النّساء، وإنّما النّساء المسترجلات المغرورات مثيلاتي. [1]

[1] بنت ديلول اسم مستعار وقّعت به الكاتبة في كثير من الجرائد الحرّة.

عيد الحجّ الأكبر أم عيد الاستهلاك الأكبر؟!

عيد ولا ككلّ الأعياد...عيد يلتئم فيه شمل المسلمين من شتّى أصقاع الدّنيا في حفل دينيّ يجمع ملايين البشر تحت مِظلَّة دين واحد من أجل عبادة الواحد الأحد. لا فضل لعربيّ على عجميّ ولا لأبيض على أسود ولا لِغنيّ على فقير إلاّ بالتّقوى فالنّاس سواسيّة كأسنان المشط.

أمّا غير الحجّاج فتُسَنُّ لهم الضّحيّة رمز التّضحية في طاعة الواحد الأحد ولو كلّف الأمر إسالة الدّماء وذبح البنين ولأنّه ذكرى فداء الّذبيح فلا غَرْوَ أن يحتفل المسلمون به وقد جرت العادة في المجتمعات الإسلاميّة أن يأخذ النّاس زينتهم في هذا اليوم الأغرّ ويُحْيُون الذّكرى بالفرح والابتهاج والتّزاور وإذا كان الفرح والابتهاج في النّفوس وليست في المظاهر أفلا يكون أجدر أن تُرَاحَ النّفوس وتُبعَث روح المودّة والإخاء من أن يُرْفَل في الثّياب الفاخرة ويُتَفَنّن في ألوان المأكل والمشرب على حساب الرّاحة النّفسيّة وحتّى لا يُفْرَغ دالُ العيد من مدلوله السّامي؟

كان العيد في بلدنا قديما مناسبة للتّزاور و"التّسامح" وكانت مراسيمه الشّكليّة بسيطة أهمّ ما يميّزها هو ذبح الأضاحي ولبس الجديد. على أنّ لبس الجديد لم يتعدَّ ثوبا واحدا لشخص ولم يكن الأب يتكلّف بتوفير الثّياب إلاّ لِمن تُلْزِمُه كسوتهم شرعا في غالب الأحيان ولو فعل أكثر من ذلك لكان من باب صنع المعروف غير الملزم. أمّا الأمّهات فلا يتكلّفن في العيد إلاّ بإعداد وجبة تبعث إلى الأصهار إكراما لهم بهذه المناسبة الجليلة.

وفيما يخصّ زينة المرأة فإنّ النّساء ما كان لهنّ أن يألون جهدا في إحياء هذه الذّكرى بأنواع الزّينة فمن ارتداء الملابس الجديدة البرّاقة إلى التّحلّي بالحجارة الثّمينة ومصوغات الذّهب والفضّة أحيانا ثمّ التّفنّن في ضروب الضّفر وألوان الأصباغ لكنّ الأمر لم يكن ليكلّف جهدا كبيرا أو مالا كثيرا فقد كفى ثوب واحد لكلّ شخص والحليّ مصونة عند الأمّهات دائما ولا تشترى للعيد خصّيصا والضّفر يقوم به بعض النّساء لبعض دون مقابل والأصباغ تستجلب من المحيط الطّبيعيّ بدون جهد يذكر.

أمّا الأطفال فلا يكاد العيد يقترب حتّى يكون حديث السّاعة عندهم سواء في ذلك الأبناء والبنات بيد أنّ أهمّ شيء بالنّسبة لهم هو لبس الجديد واللّعب في ذلك الجوّ البهيج حيث ينتظم الشّباب والأطفال في حفل الدُّفّ المعروف ويبدأ الغناء والرّقص واللّعب.

هكذا كان أجدادنا إلى عهد قريب يُحيون الذّكرى فأين ذلك ممّا نشهده اليوم؟

أسواق تغصُّ بالقُماش الهنديّ والصّينيّ وصالونات تفِد إليها أسراب الفتيات والشّابّات فيُنفِقن من المال ما يعجِز دخلُهُنَّ السّنويّ عن توفيره. يُنفِقنه في لحظة مقابل حِنَّاء تذهب أدراج الرّياح بعد يوم أو يومين.

تتكدّس الثّياب في البيوت إذ لا بدّ من لباس متكامل لكلّ فرْد ولا عِبرة بعدم الافتقار إلى الثّياب فالعيد يستدعي بهذا المنطق أن يأخذ كلّ أحد فوق حاجته في الملبس والعبء الكبير يقع على عواتق الأمّهات والآباء فبعد توفير كلّ أسباب الزّينة الجديدة الباهظة التّكاليف للأبناء والبنات لا بدّ من إهداء الملابس للأصهار من طرف الأب والأمّ فكلّ واحد يتكلّف بكسوة أقارب الآخر ولا عبرة بالحاجة فهو واجب مهما كانت إمكانيات هؤلاء متواضعةً في حين أنّ إمكانيات أولئك ضخمة فهو واجب. ولا مندوحة عن إحضار شاة الضحيّة فهي عندنا واجبة بالإجماع وليست سنّة مؤكَّدة. إذا انتقلنا إلى الأطفال الصّغار فناهيك بما يكون من ذلك. إنّهم لا يرضون بنمط معيّن من اللّباس فكم من أمّ كَلَّت قَدَماها من الرّكض في الأسواق أيّاما وأيّاما صُحبة ابنها أو بنتها الّتي لا ترضى إلاّ بلباس من نوع ترضاه وغيره لن تقبله أبدا ولا ترضى إلاّ بنوع معيَّن من النّعال لا يوجد منه في السّوق إلاّ القليل وقد تذهب الجهود سدى فلا يُحْصَل على ما يرضي الطّفل فيقضي أيّام العيد حزينا تتقرّح عيناه من البكاء لأنّ زميله فلانا حصل على ما عزَّه الحصول عليه.

إنّه نَهَمُ الموضة كلّما زاد حطبه زاد لهبه، يُرهِق ذوي الإمكانيات الكبيرة وتتقطّع له قلوب وأعناق الفقراء حسرة وشوقا فأين هذا من روح الشّريعة السّمحاء وأين هذا من روح عيد التّضحية والتّآخي والوئام تحت راية الدّين الإسلاميّ الواحد في عيد الحجّ الكبير، عيد الفرح والألفة.

الشّعب، 1992/05/18

تربيّة الطّفل في العصر الحديث

تُعَرَّف التّربيّة تعريفا وظيفيّا بأنّها تعني التّنمية والتّهذيب المستمرّ الّذي يخضع له الفرد منذ ميلاده وحتّى مماته فهي تشكّل إذاً جملة التّطوّرات الّتي يخضع لها الفرد في حياته نتيجة تفاعله مع الوسط الّذي يعيش فيه ومن المعروف أنّ المولود البشريّ يُقدِم على هذا العالم عاجزا عن توفير أبسط حاجاته للاستمرار والنّموّ مثله في ذلك مثل أضعف الحيوانات الأخرى إلاّ أنّه مزوّد بقابليّات جمّة لا تلبث أن تأخذ في الإعلان عن نفسها شيئا فشيئا مع تقدّم نموّ الطّفل في خطاه عبر سلّم العمر.

بيد أنّ ذلك النّموّ رهين بمستوى التّربيّة الّتي يخضع لها الطّفل إذ هو لا يستطيع أن يربّي نفسه بنفسه بل إنّ تربيّته تستلزم وجود قائم بالعمليّة التّربويّة وهو أمر يتولاّه عادة أبَوَا الطّفلِ أو أحدُهما ويتأطّر بإطار مجموعة القِيَم والمبادئ المنظِّمة لنشاط المجتمع. وفي العصر الحديث تُعْنى بتربية الطّفل جهات متعدِّدة على نحو ما سنرى.

هذا وتتّخذ التّربية أشكالا مختلفة انطلاقا من ظرفها الزّمانيّ وما يُمْليه المستوى الحضاريّ لكلّ مجتمع وتؤكّد الدّراسات التّربويّة الحديثة في هذا المضمار ضرورة مُسايَرة العمليّة التّربويّة لتنامي جوانب شخصيّة الطّفل عبر مراحل نُمُوِّه مع تغذية هذه الأبعاد بشكل وئيد مترفّق حتّى لا يختلّ توازن الشّخصيّة الهشّة لدى الطّفل ولكي تأخذ كلّ فترة من فترات الطّفولة حظّها المناسب من الرّعاية تنضاف إلى ذلك ضرورة مراعاة الفروق الفرديّة والقدرات الذّاتيّة لدى الأطفال كلّ ذلك من أجل إعداد الطّفل إعدادا متكامِلا لمواجهة الحياة في العصر الحديث تلك الحياة الّتي تتّسم بالتّعقيد والبلبلة المتأتّيَيْن من دَوَران عجلة التّطوّر الشّامل بسرعة مذهلة. وإنّ تربية منبثقة من هذه الأرضيّة مستجيبة لمتطلّبات هذا العصر لا بدّ وأن تراعي العوامل المتعدِّدة والأوضاع المختلفة المؤثّرة في حياة الفرد خاصّة في أيّام طفولته ولن يتمَّ ذلك إلاّ باستلهام نتائج الأبحاث المستمرّة في مجال التّربية وعلم النّفس بمختلف فروعهما والانطلاق من النّظريات التّربويّة والقواعد الّتي تأخذ مستندها من قِيَم عامّة عند جميع الأُمم ولعلّ أهمّ ما يُميِّز التّربية في العصر الحديث على المستوى التّطبيقيّ هو ارتباطها بخُطط وبرامج تُوضَع مسبقا لتعمل على تنفيذها ومتابعة تطبيقها مؤسَّسات اجتماعيّة ذات هياكل معيّنة

تعمل على إعداد الطّفل منذ فترة مبكّرة من حياته للانسجام في الوسط الاجتماعيّ الحديث المتميّز. فما هي هذه المؤسّسات؟ وما هو قسط كلّ واحدة منها في عمليّة التّربية؟ وأيّ نوع من العلاقات يربِط بعضها ببعض؟ وهل تربطها علاقات من حيث الوظيفة بأوساط أخرى؟ وما هو حظّ بلدنا من ذلك؟

دور المؤسَّسات التّربويّة في العصر الحديث

تتوالى على تربية الطّفل في العصر الحديث المؤسّسات التّالية:

1- **دور الحضانة:** وهي مرافق وُضِعت خِصّيصا لحضانة الأطفال ورعايتهم في جوّ مناسب وهي غالبا تشمل كلّ الأطفال الّذين يفتقدون رعاية الأبوَيْن إمّا بسبب انشغال الأبويْن في حقول العمل الكَسْبِيّ أو الدّراسة حيث إنّ الأمّ الّتي كانت الرّكيزة الأساسيّة للتّربية داخل البيت أصبحت مشارِكة في الأعمال العامّة، وإمّا بسبب فُقدان رعاية الأبويْن بسبب اليُتم أو الطّلاق أو ما يُعْرف بظاهرة اللُّقَطاء ويُعْتَبَر السّبب الأوّل هو الأكثرَ شُيوعا في أيّامنا هذه والطّفل هنا لا يبقى طول الوقت خارج جوَّ الأسرة وإنّما لبضع ساعات فقط.

وتقتصر فترة دور الحضانة غالِبا على سَنَتَيْ الرَّضاع وقد تتجاوزهما إلى السّنة الثّالثة وللأطفال اللُّقَطاء كما للأيتام دُورُ حضانةٍ خاصَّةٌ بهم من بَعْد ولا يَسْمَحُ المستوى العُمُريّ في دُور الحضانة الأُولى بتلقِّي معلومات تُذكَر اللّهمّ إلاّ عن طريق توسيع مدارك الطّفل والتّمرين على بعض الحركات أثناء التّرفيه واللّعب أحيانا.

الأسرة ودار الحضانة

وطبيعيّ أن لا تستطيع هذه الدُّورُ تعويض الأسرة ذلك أنّ جوّ الحنان والاطمئنان في الأسرة لا يمكن أن يُعَوَّضَ نظرا لما للأبويْن خاصّة الأمّ من شفقة ورغبة صادقة في إحاطة الابن بالرّعاية والعناية الكاملة الّتي تأخذ جذورها من الفطرة السّليمة، لكن ليست كلّ أسرة نموذجيّة فقد يكون جوُّ الأسرة مُتَوَتِّرا بحيث لا يصلح لأن يكون وسطا لتربيّة سليمة أضف إلى ذلك أنّ دُورَ الحضانة تتوفَّر على إمكانيات ووسائل قد لا تتأتّى للأسرة.

ومهما يكن من أمر فإنّ ما يُوَجَّه لهذه الدُّور من انتقادات خدماتها لا يصل إلى حدّ نكران جَدْوَائِيَّتِها مُطلقا خاصّة أنّ الواقع الحديث يتطلَّبها وأنّ تجربة الحاضنة المؤجَّرة في البيت قد برهنت على فشلها.

2- **رياض الأطفال**: تستقبل رياض الأطفال الأبناء في مرحلة ما بعد الرّضاع وحتّى سنّ التّمدرس ويُوزَّع الأطفال إلى مجموعات تقوم بنشاطات وِفق برامج مُحَدَّدَة تنظر بعين الاعتبار إلى أبعاد شخصيّة الطّفل ومتطلَّبات فترته العُمُريّة ويرى علماء التّربية أنّ هذه الفترة ذات دَوْر كبير في رسم مسار حياة الطّفل في المراحل اللاّحقة لذلك يلزم تقويم سلوك الطّفل في التّعامل مع زملائه وتعويده على الانضباط وتنمية قدُراته الذّاتية ومواهبه الخاصّة ومهاراته ولا شكّ أنّ ذلك يستدعي إيجاد مُكَوِّنين مُختصِّين للقيام بهذا الدّور الصّعب فمِن أين لِمَن لم يتَلَقَّ أيّ تكوين تربويّ أو في مجال علم النّفس أن يرصُد أبعاد شخصيّة الطّفل ويزوِّدها بالغذاء المناسب؟! هذا وتأخذ رياض الأطفال بالمقولة التّربويّة المعروفة "رَبُّوا أبناءكم وهم يلعبون" ونظرا لما لفترة الرّوضة من أهمّيّة في حياة الطفل فهي مطالَبة بإعداد مِلَفّ متكامل عن شخصيّة الطّفل وخصائصه الذّاتيّة يُقَدَّم للمدرسة عندما تنتهي مهمّة الحديقة لتبدأ المدرسة مهمّتها وهذا الملفّ ينبغي أن يحمل سيرة ذاتيّة للطّفل وحصيلة رصد جادّ لأبعاد شخصيّته من خلال سلوكه حتّى يُعِين المؤسَّسة الجديدة على القيام بدَوْرها على أكمل وجه بحيث تتكامل أدوار الحِلَق التّربويّة في سياق خدمة الفرد والمجتمع.

3- **المدرسة**: وهي مؤسّسة اجتماعيّة تربويّة تعليميّة تمتدّ فترتها على امتداد فترات عمريّة تمثّل ربيع العمر وتعتبر مهمّة المدرسة ذات دور كبير في إعداد الفرد للمشاركة في الحياة النَّشِطة بشكل يضمن له قسطا من السّعادة والانسجام داخل المنظومة الاجتماعيّة في العصر الحديث والاستفادة من تجارب السّابقين.

هذا وتَتَّبِعُ نظام المكافأة والعقوبة حرصا على توفير الجوّ الملائم لأداء مَهَمَّتها وترسُم برامجها انطلاقا من النّظريّات التّربويّة والخصوصيّات الثّقافيّة لكلّ بلد.

دَوْر المدرسة في الميزان

تُوَجَّهُ للمدرسة بعضُ الانتقادات منها أنّها ذاتُ نظام مُلْزِم مُنافٍ للحرّيّة والمسؤوليّة وأنّ نظام المكافأة والعقوبة له سلبيّاته المتّصِلة باعتبار التّحصيل العلميّ والانضباط السُّلوكيّ وسيلة لا غاية وبالتّالي فإنّه يمكن اتّخاذ الطُّرُق المُلْتَوِية وسيلة بديلة للوُصول إلى الغاية المطلوبة رغبة في الاستفادة من فُرص معيّنة. ومهما يكن من أمر فإنّ المدرسة تبقى الإطار التّربويّ الأهمّ في عصرنا الحديث لكنّها تتطلّب السّهر على تسييرها في الاتّجاه القويم والعناية بمقوّماتها الأساسيّة حتّى لا تُصاب بعطب في إحدى عجلاتها فتختلّ وظيفتُها.

هذه إذاً أهمّ المؤسّسات التّربويّة المساهِمة في تكوين الفرد حديثا وقد حظي دَوْر المدرسة بالنّسبة للطّفل بتركيز أكثر نظرا لأنّ دَوْرَها بالنّسبة للمراهق والشّابّ لا يدخل في إطار هذا المقال.

أجواء أخرى ذات دَوْر في التّربية

يتفاعل عطاء المؤسَّسات المذكورة مع عطاء بيئات وتنظيمات اجتماعيّة ذات دَوْر لا يُستَهان به في حياة المجتمع المتَحَضِّر في أيّامنا هذه فثمّة ما يُعْرَف بالنّوادي الفنّيّة والتّرفيهيّة ودَوْر المسرح والسّينما والملاعب الرّياضيّة والحانات ومُنتَجعات السّياحة وغير ذلك من ما تعُجّ به الحياة المدنيّة الحديثة من وسائل التّرفيه والتّسلية كما أنّ بقاء الطّفل في الشّارع مدّة وتواصله مع أنماط بشريّة متعدِّدة المشارب يؤثّر في تربيته أعظم تأثير ولئن عمل المرَبُّون على تجنيب الطّفل ارتياد هذه المحلاّت فإنّ وسائل الإعلام تقوم بنَقلٍ حيٍّ لِما يجري فيها كما تعكس صُوَراً مختلفة مِن مناحي الحياة لدى المجتمعات كافّة ممّا له أثره في بلبلة القِيَم والسُّلوك.

ولعلّ أغلبيّة هذه التّنظيمات والبيئات والوسائل ذات جوانب إيجابيّة ترفيهيّة وتثقيفيّة بالدّرجة الأولى، لكن قد تحمل إلى جانب الرّسالة المذكورة إغراء لبعض المناحي السُّلوكيّة الشّاذّة لربّما

اصطدمت بقِيَم اجتماعيّة وأخلاقيّة عند مجتمع من المجتمعات لا يتأتّى لطبيعته الخاصّة احتواء تلك الأنماط السّلوكيّة فكان من ذلك اختلال وانحراف.

وعلى كلّ حال فإنّ ثمّة صراعا مُتعدِّد الأطراف بين البيئات الاجتماعيّة والمؤسَّسات التّربويّة ووسائل التّرفيه تبدو تجلّياته واضحة خاصّة في مجتمعنا الموريتانيّ الحديث.

التّربية الحديثة في بلادنا

إنّ لمجتمعنا خصوصيّة لعلّها نادرة في المجتمعات إذ هو قد فتح عينيْه على التّمدّن والحضارة الحديثة دفعة واحدة فبينما هو مُوغِل في البداوة إذا به يُضطَرُّ إلى التّمدّن (ونعني هنا بالتّمدُّن الاستقرار وترك حياة الحَلّ والتَّرحال) وبمجرّد أنّ ألقى عصا التّرحال وجد نفسه يتعامل مع مُعطَيات الحضارة الحديثة وعزَّ عليه أن يجد المخرج. حاول أن ينسجم في الحياة الحديثة ولكنّ بِنْيَة تفكيره ونظرته للأشياء لم تتطوّر بعد بما فيه الكفاية وطبيعيّ أن ينجم عن ذلك اختلال وتخبُّط وبلبلة في المفاهيم قد تدفع البعض إلى تكسير كلّ الحواجز في خضمَّ الانبهار كما قد تقعد بآخرين عن الانسجام في الجوّ الجديد.

ومهما يكن من أمر فإنّ المؤسَّسات التّربويّة في العصر الحديث قد قامت بدور لا يُستَهان به في مجتمعنا إلاّ أنّها ما زالت تعاني من ضعف الوسائل ونقص مقدرة الكَوادر البشريّة وهي في معاناتها هذه متفاوتة فمعاناة الحدائق في هذا الصّدد أشدّ من معاناة المدارس ذلك أنّ الكادِر البشريّ الموجود في الحدائق ضعيف التّكوين إلى أبعد الحدود ممّا ينذر بانحراف الطّفل في مرحلة من أحرج مراحل تربيّته وهذا ما يفسّر من بين أمور أخرى عزوف الأهالي عن إلحاق أبنائهم برياض الأطفال فمتى ستعي الجهات المسؤولة ضرورة إعداد مُربّين قادرين على القيام بدَوْرهم في حدائق الأطفال؟

أمّا دور الحضانة فهي غير موجودة عندنا وإنّما هنالك بعض المراكز لإيواء اللُّقَطاء والأيتام والمشرَّدِين والمعوَّقين وتعليمهم بعض الحرف ولعلّ الحاجة إلى دُورِ حضانة تستقبل كلّ الأطفال لم تكن موجودة من قبل نظرا لكثرة البِطالة خاصّة في صفوف الأمّهات ولكنّها بدأت تظهر بشكل جليّ في الأعوام الأخيرة في خطّ متوازٍ مع زيادة عدد العاملات والطّالبات.

وفيما يخصّ دَوْر المدرسة عندنا فإنّها تعاني إلى جانب ضعف الوسائل ونقص القدرات من ثغرات واضحة في البرامج المرسومة فمثلا هنالك مادّة من أهمّ الموادّ الّتي يحتاج إليها التّلميذ والطّالب خاصّة في مجتمعنا المتخلّف ألا وهي التّربية المدنيّة فقد غابت منذ فترة طويلة من مِسطرة برنامج التّعليم على المستوى العمليّ ولم يبرِّر هذا الغياب لحدّ الآن ولكنّه يبدو مستمرّا فما السّبب؟

مجتمعنا ووسائل التّسلية الحديثة

طبيعيّ أن لا يَسْلم المجتمع الموريتانيّ من تأثير مغرِيات الحياة الجديدة ولئن كان ثمّة شحّ في وجود مرافق ترفيهيّة وثقافيّة في السّاحة، فإنّ وسائل الإعلام تزوّدنا بما يغطِّي استهلاكنا من ذلك ونعني بوسائل الإعلام أفلام الفيديو والصُّحُف الأجنبيّة والسّينما والتّلفاز وكلّها وسائل ذات حدَّيْن كما هو معروف لكن نظرا لضعف الإمكانيات عند النُّخبة المثقَّفة وغزْو الإعلام الغربيّ أصبح ما يصل إلى الأيدي من هذه الوسائل كثير الغثّ يطفح بالمغْرِيات التّرفيهيّة غير الهادفة.

ولا شكّ أنّه إلى جانب ذلك توجَد بعض المرافق النّاشئة والنّوادي لها دَوْرها في التّوعية والتّثقيف أكثر وإنّ مجتمعنا بحكم تشبُّثه بمبادئه الّتي يستمدّها من الشّريعة الإسلاميّة يبدو محصنا في غالبيّته عن احتواء بعض السُّلوكيات الشّاذّة بيد أنّ ثمّة ثلّة قليلة يخشى أن ترسخ قدمها في بلدنا وتشيع فيه الانحراف والشّذوذ تحت تأثير المغرِيات المادّيّة.

وهكذا فإنّ التّربية الحديثة تنطلق من نظريات علم التّربية لتطبّق معطياتها من خلال مؤسَّسات ذات وسائل خاصّة وبرامج مرسومة مراعية خصوصيّة كلّ بلد وهي تتعامل مع وسط اجتماعيّ مليء بالعوامل والمؤثّرات الأخرى ممّا يجعل مَهمَّتَها صعبة بقدر ما هي مفيدة.

وفي العصر الحديث لم تَعُدْ تربية الفَرْد تَقِف عند فترة الطُّفُولة ليُلْقَى له الحبل على الغارب فيتربّى بصورة عشوائيّة بعد ذلك وإنّما أصبحت عمليّة مسايرة لحياة الفرد حتّى سنّ الرّشد كما لم تعُد التّربية تهدف إلى أن يكون الابن نسخة مِن والده وإنّما أصبح الوالِد نفسه يريد من ابنه أن يكون مكمِّلا للنّقص الّذي يعانيه هو أمّا التّربية الحديثة فتُريد من الأبناء أن يكونوا مُستجِيبين في سُلوكياتهم لِمُتَطَلَّبات العصر وخدمة الوطن مُنْتِجِين ومُساهِمين في دفع عجلة التطوُّر.

وفي مجال طبيعة الفعل التّربويّ فإنّه كان يستخدم القسوة والتّلقين وسيلة عند القدماء غالِبا فأصبح يميل إلى اللّين وطريقة الحوار إلاّ لضرورة ولعلّ للمنهج التّربويّ الإسلاميّ خصوصيّته عن المنهج التّربويّ القديم عامّة لكنّ المستوى التّطبيقيّ لهما يبدو متقارِبا نظرا للانفصام القائم بين المستوى النّظريّ للشّريعة والممارسة الفعليّة عند المسلمين على مدى العصور اللاّحقة لصدر الإسلام.

ولربّما كان في التّأليف بين مُعطَيات النّظريّات التّربويّة والمناهج الحديثة من جهة والمنهج الإسلاميّ ما ضمن نوْعا من الانسجام هو ما يهدف إليه كثير من البلدان الإسلاميّة.

وعلى كلّ حال فإنّ تربيّة الطّفل تتطلّب كثيرا من الآليات النّظريّة والتّطبيقيّة وذلك ما جعل كثيرا من المنظَّمات الدّوليّة والمؤسَّسات الخيريّة تُعنَى بتربيّة الطّفل من وُجوه متعدِّدة ذلك أنّ سعادة الأجيال القادمة رهينة بإعداد جيل الأطفال إعدادا سليما.

وعليه فتربية الطّفل أمانة في عنق المجتمع البشريّ الحديث المتحضّر فأين نحن من ذلك؟ ومتى يحظى طفلُنا المسكين برعاية أكثر؟

إنّ الإشكاليّة ليست متعلّقة بالطّفل الّذي يدفع إلى المؤسّسات التّربويّة بالدّرجة الأولى وإنّما هي متعلّقة بالأطفال الّذين فقدوا الرّعاية في منازل ذويهم ولم تأْوِهم المؤسَّسات المذكورة. إنّهم باختصار أطفال الشّارع الّذين يتشرّدون ويرتمون في أحضان الجريمة ويحملون العدوى إلى الأطفال الآخرين وإلى الجيل القادم.

الشّعب، 07 / 1991

الجيل الصّاعد أم الجيل الهابط؟

الجيل الصّاعد مصطلح يتردَّد كثيرا في وسائل الإعلام هذه الأيّام وهو يعني في مدلوله الأطفال والمراهقين مِمَّن لم يتجاوزوا بعد عتبة البلوغ إلى سنّ الشّباب ولعلّ الاهتمام بهؤلاء باعتبارهم شريحة مخصوصة لها أن تخضع لنمط معيَّن من التّكوين والرّعاية أمر جديد جاءت به مقتضيات الحياة المدنيّة في ظلّ الحضارة الحديثة وما ولّدته من خبرات متطوّرة وحاجات متنوّعة عملت على أن يكون التّكوين بجوانبه التّعليميّة والسّلوكيّة مَوْكُولاً إلى مؤسَّسات عامَّة ذات هيكلة تربويّة خاصّة.

فلم تَعُد التّربيّة مقتصرة على بعض الجوانب من شخصيّة الطّفل، ولم يعُد الحبل مُلْقًى على الغارب له ليستفيد من مدرسة الحياة بدون موجِّه أو مؤطِّر ولئن كانت عمليّة التّربية يجب أن تظلّ مسايِرة للفَرْد منذ المهد وحتّى سنّ الهرَم فإنّ فترة الطّفولة الأولى والمراهقة أجدر بأن تحظى بالاهتمام أكثر من غيرها من فترات العمر لِما لها من دور في تكييف الشّخصيّة مستقْبَلا ومن هنا يتَّضِح جلِيّاً السّبب الكامن وراء الاهتمام الكبير بالطّفل والطُّفولة على المستوى العالميّ في عصرنا هذا فقد انتشرت خدمات الهيئات الدّوليّة في هذا المجال وكثرت المرافق المعتنية بتربية الطّفل فما هو حظّ طفلنا من ذلك؟ وهل يعتبر أطفالنا جيلا صاعِدا حقّا أم أنّهم جيل هابِط وأيّ هُبوط ذلك؟ هل هو بالمفهوم العامّيّ أم الفصيح أو هما معا؟

كان الأطفال يتربَّوْن في هذا البلد بحسب ما يُمْلِيه الواقِع والظّرف الزّمانيّ الّذي يتحرّكون في فضائه مع ما تقتضيه الفروق الفئويّة المنبثقة من البِنْيَة الهرميّة للمجتمع تنضاف إلى ذلك فاعلية الرّافد التّراثيّ النّابع من الهوّيّة الحضاريّة الأصيلة، فجاءت تربية تحمل إلى جانب بصمات التّربية الأخلاقيّة الإسلاميّة السّمحاء ملامح من التّربية البدائيّة أحيانا وبُثُور عقليّة ولدتها الظّروف أيّامَ غياب الحكم المركزيّ في هذه البلاد فنسجت عليها العنكبوت بيتها وأكل عليها الدّهر وشرب منذ عهد سحيق لكنّ الآباء ما فتئوا يلقِّنونها للأبناء وكأن ذاكرتهم لا تحمل من تاريخنا على هذه الأرض إلاّ ما الدّفنُ والحرق أولى به.

أمّا اليوم، أيّام المنعرج الحاسم كما تسمّيه وسائل إعلامنا فإنّ كلّما يعترضنا من هموم نحمِّل البداوةَ مسؤوليّتَه ونقول "سلوك بدويّ" و"من دأب على حياة البداوة لا يمكنه أن ينسجم مع حياة المدنيّة" ونعلّق الآمال على الجيل الصّاعد فأيّ جيل صاعد هذا الّذي يقضي بياض يومه يتعلّق بأذناب السّيّارات؟ يجول بين أكوام القمامة يعتمد في غذائه على فتات الموائد الغثّة عند الباعة المتجوّلين أو القاطنين في سُحُب الغبار والذّباب؟ أيّ جيل صاعد ذلك الّذي "ينتظم" ضمن عصابات من المشَرَّدين يهيمون في الأزقّة لا يحكمهم إلاّ قانون الغاب يتنابزون بالألقاب ولا يعودون لمنازل ذويهم إلاّ للتّزوّد ببعض النّقود أو إذا داهمهم النّعاس في مكان غير قَصِيّ؟ أيّ جيل صاعد هذا الّذي لا يعتني بمَأكله أو ملبسه أو سلوكه فتارة يدلَّل وتارة يُضرَب وأكثر الوقت يبقى مهمَلا بل حساب؟

إنّ الأطفال في بلدنا يعانون أكثر من الكبار خاصّة الذّكور منهم وخاصّة في الأحياء الشّعبيّة وإبّان العطلة الصّيفيّة حيث يعُمّ الفراغ وتكثر المستنقعات وتضيق المنازل بمن فيها.

طبعا لهذه الظّاهرة أسباب كثيرة تتشابك مع ظواهر أخرى كظاهرة الفوضى المجتمعيّة والتّفكّك الأسريّ وفقدان المرافق الضّروريّة وتلوّث البيئة وتقصير جهاز الأمن وغير ذلك ممّا يضيق المقام عن ذكره بصورة مفصّلة.

ومهما يكن من أمر فإنّني أكاد أجزم بأنّ مثل هؤلاء الأطفال سيكون من بينهم "تبتابون" ناجحون وسارقون متحايلون ولصوص متمرّسون وربّما مخترعون أو مجانين.

أمّا أن يكون من بينهم أشخاص مُتَّزِنون أهل رأي وسداد وانضباط في العمل المنتِج الدّافع بعجلة النّمو المتكامل فذلك ما لا أعلِّق عليه أملا رغم حاجتنا إليه وحرصنا على وجوده فعسى أن تتّخذ جهات القرار بعض الإجراءات النّافعة بهذا الصّدد من مثل خَلْق مرافق لتوظيف طاقات الجيل الصّاعد في أوجه الرّشاد فالكلّ بحاجة إلى ذلك حتما وإذا عزّ وجود مثل تلك المرافق في القريب العاجل فهلاَّ أَخَذ بشأن هؤلاء إجراءٌ كالّذي يُقام به أحيانا ضدّ الماعز؟ لِمَ لا تكون ثَمَّة سيَّارات تراقب تجمُّعات أطفال الشّارع حتّى إذا ما وجدتهم يتسكَّعون نهارا أو ليلا أخذتهم عنوة إلى حظيرة يبقوْن فيها حتّى يدفَع عنهم ذو وهم ضريبة مُقابِل اصطحابهم؟ إنّ مثل هذا الإجراء قد يكون رادعا لبعض الوقت بدون شكّ.

إنّ طفلنا ما زال هابطا بكلّ ما في الكلمة من معنى فهو هابط بالمفهوم المحلّيّ (مدلَّل غبيّ) وهو هابط في مستنقعات الجوع والمرض والانحراف فعسى أن ينتبه إليه المسؤولون عنه ويعطوه من العناية ما يستحقّ حتّى يكون جيلنا الصّاعد صاعدا حقّا إلى قِمَم العلا على سلالم منيعة من التّربيّة الصّحيحة والمعرفة الخلاّقة.

وليكن التّوفيق حليفَ مَن يحملون على عواتقهم أداءَ هذه المهَمَّة النّبيلة بحقّ.

الشّعب 3 / 8 / 1992

جولة في رحاب الحجرات

الحلقة الأولى

اليوم يعود القلم من سياحة في رحاب الحجرات الدّراسيّة فماذا عن هموم أسرة التّدريس في دنيا التّحصيل المعرفيّ والتّكوين التّربويّ على الطّريقة النّظاميّة الحديثة في بلدنا هذه الأيّام؟

لئن كانت غاية التّعليم في العصر الحديث هي تنمية جوانب الشّخصيّة تنمية تضع في الحسبان متطلّبات الأبعاد النّفسيّة والعقليّة والبيولوجيّة والفسيولوجيّة والسّوسيولوجيّة بغية الحصول على العقل السّليم في الجسم السّليم فإنه يبدو من اللاّزم توفير مرافق وأطر مادّيّة وبشريّة مختلفة لها من الكفاءة ما يضمن دفع العجلة إلى الأمام بشكل متوازن يتنامى تصاعُديّا في خطّ متوازٍ لخطِّ مسيرة العمر من مرحلة إلى مرحلة.

وهذه الأطر تتمثّل أساسا فيما يُعْرَف اليوم بالمؤسّسات التّعليميّة من الرّوضة إلى الجامعة بكلّ ما تشتمل عليه هذه المؤسَّسات من وسائل مادّيّة وبشريّة كالإدارة والرّقابة والمكتبة والبرامج والجداول والسّجلاّت والوثائق والبُنى التّحتيّة من طاولات وكراسي... هذا طبعا بالإضافة إلى قُطْبَيْ عمليّة التّعليم التّقليديّيْن وهما المعلّم والمتعلّم اللّذيْن أصبحا يخضعان لنظام مخصوص في التّعامل فيما بينهما والآخرين داخل الحرم المدرسيّ كما يلزمان باحترام توقيت مضبوط كلّ ذلك من أجل توفير الجوّ الملائم لإيصال الرّسالة التّعليميّة كيما تُؤْتِي أُكُلَها على نحو يصنع جيلا قادرا على الانفتاح منسجما مع محيطه الاجتماعيّ.

تلك إذاً الخطوط العريضة لأهداف وطرائق التّعليم النّظاميّ في العصر الحديث إلاّ أنّه رغم وعي الغالبيّة بضرورة تحقيق الأهداف المذكورة، كلّ حسب فهمه لها، فإنّ ثمّة عوائقَ تشدّ العجلة إلى الوراء خاصّة في بلد كبلدنا حديث العهد بالانفتاح على النُّظُم الحديثة في شتّى مجالات الحياة.

أجل إنّ مجتمعنا الموريتانيّ بحكم تعلّقه الأصيل وتقديره للعلم والمعرفة وبحكم وعي غالبيّته لضرورة التّعلّم في العصر الحديث باعتباره وسيلة حياة لا غنى عنها يزداد إقباله على المؤسّسات الدّراسيّة أكثر فأكثر لكنّ رواسب عقليّة البداوة ما زالت تحول دون احترام النُّظُم المرسومة بشكل قد يحيل دور المؤسَّسة المدرسيّة إلى دور تمثيليّ (مسرحيّ) مفرغ من الرّوح العمليّة الجادّة أحيانا.

وانطلاقا من ذلك فإنّ هذا المقال يهدف إلى تسليط الضّوء على بعض تجلّيات ضغوط العقليّة المجتمعيّة على المدرّس في تعامله مع تلامذته خاصّة إذا تعلّق الأمر بالخضوع للنّظام المدرسيّ المرسوم هذا مع التّركيز على المرحلة الثّانويّة بسنواتها الستّ إذ إنّها تمثّل فترة بالغة الأهمّيّة في المسيرة الدّراسيّة باعتبار أنّها عادة تواكب فترة المراهقة من حياة الفرد مع ذكر بعض العوائق الأخرى المادّيّة توخّيا للإحاطة.

لعلّ من الطّبيعيّ أن يتعرّض كلّ ذي نشاط لبعض العراقيل والصّعوبات طالما أنّ الطّرق ليست مفروشة بالورود دائما سواء كان صاحب النّشاط معلّما أو متعلّما أو عاملا في أيّ حقل، لكنّ ميادين العمل تختلف في ذلك تبعا لخصوصيّاتها فمتى كانت طبيعة العمل تفترض التّعامل المباشر مع الأوساط الاجتماعيّة في معالجة همومها الحياتيّة كان العمل أكبر عبئا وكان العامل من ثَمَّ أكثر تعرُّضا للمضايقات ممّا يستلزم أن يكون مؤهّلا سيكولوجيّا وعلميّا بشكل يضمن المرونة والاتّزان والجدّيّة حتّى يؤدّيّ دوره على ما يرام خاصّة إذا كانت الوسائل محدودة ومن يتعامل معهم أقلّ نضجا وأقلّ حظّا من التّكوين ومن ثَمَّ ندرك جليّا ضرورة انتقاء المدرّسين أصلا وإعدادهم إعدادا يتناسب مع عظم المهَمَّة الموكلة إليهم وأين ذلك من اعتبار مهنة التّعليم مهنة مَن لم يُوَفَّق في الحصول على منحة دراسة في الخارج أو تكرّر فشله في الامتحانات العامّة أو لم يساعده الحظّ في التّعيين في الإدارة فالتحق بأحد معاهد تكوين المدرّسين غير متوفّر على أبسط حدّ من القناعة بهذه المهنة؟ ولعمري إنّ ثمّة عددا من مدرّسينا دفعته هذه الظّروف وحدها إلى حلبة التّدريس فهل ينتظر منه أن يكون نموذجا للمربّي النّاجح؟ هذا مع أنّ المدرّس في بلادنا بغضّ النّظر عن المسائل المذكورة مهما كان حماسه للعمل ولتطبيق النّظم المرسومة سوف يجد من الصعوبات المتعلّقة بالوسائل المتاحة من جهة وعقليّة المجتمع وضغوط الوسط من جهة أخرى ما يحدّ من جدوائيّته فكيف ذلك؟

لنبدأ بالصّعوبات المتعلّقة بالوسائل المادّيّة أوّلا ولنسلّط الضّوء على تعامل المدرّس معها على سبيل المثال، مدرّس اللّغة العربيّة في المدارس الثّانويّة كيف يتعامل مع الوسائل المتاحة وما هي العراقيل الّتي تعترضه أكثر من غيره؟

أوّلا: الكتاب المدرسيّ

مثلا كتاب النّصوص الإعداديّ فهذا الكتاب صدر منه حتّى الآن شكلان:

- الشّكل الأوّل جيّد الطّباعة والإخراج لكنّ نصوصه غير منتقاة من حيث المحتوى والقيمة الفنّيّة كما أنّها لا تتناسب من حيث الكمُّ مع الوقت المخصَّص للحصص فالمحتوى ليس دائما في خدمة التّلميذ من حيث البعدُ الأخلاقيّ فنصوص الخمرة مثلا رغم ما لها من قيمة فنّيّة لا ينبغي تقديمها للتّلميذ في بلد كبلدنا خاصّة في هذا الظّرف التّاريخيّ ثمّ إنّ النّصوص الخالية من روح الشّعريّة ضئيلة القيمة الفنّيّة ولو كانت توجيهيّة لا ينبغي تقديمها للتّلميذ في هذه المرحلة، أضف إلى ذلك أنّ ثمّة تعليقا على نصّ يقارن بين المرأة والرّوضة يعبّر عن قصور في الذّوق الفنّيّ وجهل بقواعد التّربيّة إلى حدّ بعيد.

أمّا الكتاب الثّاني الّذي ينبغي أن يكون مكمّلا لنواقص الأوّل فهو رديء الإخراج من النّاحية الشّكليّة وتطغى على محتواه النّغمة التّوجيهيّة الوعظيّة إلى حدّ يزهق روح التّذوّق الجماليّ والولع بالحرّيّة لدى المراهقين أضف إلى ذلك غياب التّوثيق وانعدام الفهارس غالبا وهو بطبيعة الحال كسابقه في طول النّصوص المقدّمة وارتباط النّصّ عضويّا إلاّ أنّ الأوّل أغنى فنّيّا من الثّاني.

وهكذا فإنّ الكتاب المدرسيّ الّذي يطالب الأستاذ من طرف المفتّشين باعتماده لم يصل بعد في بلادنا إلى المستوى المناسب.

الشّعب، 1992/04/14

جولة في رحاب الحجرات

الحلقة الثّانية

فضلا عن نواقص الكتاب المدرسيّ المذكورة في الحلقة الأولى من هذا المقال فإنّ نفس الكتاب يُدرَّس عادة للشُّعَب العربيَّةِ والمزدوجة والعلميّة والرّياضيّة بدون فَرْق وإنّ الأمر ليدعو إلى السّخريّة متى تعلّق الأمر بالشُّعَب المزدوجة خاصّة إذ إنّ الازدواجيّة في بلدنا تعني جهلا تامّا باللّغة العربيّة وتلك "مزيّة" من مزايا الإصلاح التّعليميّ الثّمانينيّ الّذي عمل على أحاديّة اللّغة!

وعليه فإنّ الأستاذ يجد نفسه أمام اختيار واحد من اثنيْن: إمّا أن يعتمد الكتابَ فيكون درسه في وادٍ وتلاميذه في وادٍ وإمّا أن يستعين بكُتُب المرحلة الابتدائيّة أو يؤلّف نصوصا تتناسب مع مستوى التّلاميذ فيكون قد أفاد ولكنّه خرق النّظام.

وتجدر الإشارة في هذا الصّدد إلى أنّ جلّ مُدرِّسي الشُّعَب المزدوجة يُجْمِعُون على أنّ أجدى وسيلة لتعليم اللّغة هي اعتماد القصص التّرفيهيّة أو قل الحكايات التّرفيهيّة كحكايات جُحا والحكايات الشّعبيّة المحلّيّة المضحكة ذلك أنّ التّعاطف مع الموضوع يُغري بمعرفة القالب اللّغويّ الّذي يحتويه وذا طبعا ما لا يستجيب إليه الكتاب المدرسيّ في بلدنا على نحو ما ذُكِر في الحلقة الأولى من المقال.

ثانيا: البرامج

أعدّت البرامج منذ عهد بعيد على شكل محاور تنضوي تحتها نقاط تفصيليّة عادة وغالبا ما تكون هذه النّقاط على شكل عناوين محدّدة تحديدا لا يسمح بتغيير أو تصرُّف حسب ما قد يقتضيه المقام ويبدو جليّا أنّها لم تُراجَع منذ أمد بعيد بل هي ساكنة لم يصلها ناموس التّطوّر حتّى الآن ممّا يعكس تجاهلا لمتطلّبات الظّروف المستجدّة على جميع مستويات الحياة خاصّة وأنّ مجتمعنا يعيش مرحلة تحوُّل ضاربة في جذور شتّى الثّوابت فهل تبقى البرامج المعدَّة منذ أواخر السّبعينات معتمَدة في مدارسنا حتّى بعد سنة 2000 بدون أن تُراجَع؟ هل سيبقى على سبيل المثال برنامج السّنة الثّالثة إعداديّة والسّادسة ثانويّة من التّاريخ الحديث واقفا عند نتائج الحربين العالميّتيْن وحركات

التّحرّر في العالم وتشكُّل القوَّتين العُظميَيْن والحرب الباردة؟ نعم إنّها بدون شكّ وقائع تاريخيّة ذات أهمّيّة كبرى لكنّها لن تبقى أبدا من التّاريخ الحديث ما دامت عجلة التّاريخ لا تتوقّف عن الدّوران.

هذا وهناك مادّة أُغْفِلت من مسطرة البرامج نظرِيّا وتطبيقيّا منذ مطلع الثّمانينيّات وهي مادّة التّربيّة المدنيّة فأيّ شيء دهى هذه المادّة المسكينة؟ هل تُرى مجتمعنا بحكم درجة وعيه وتمدُّنِه وثقافته الواسعة أصبح في غنى عنها؟ أم أنّ المدرّسِين أَوْعَزوا إلى الجهات المعنيّة بأنّ التّلاميذ لن يستطيعوا بحال من الأحوال استيعاب مضامينها فأُصدِر حكمٌ بإعدامها وحدها من قائمة الموادّ؟ قبل أن نبتعد قليلا عن فضاء البرامج لا بدّ من ملاحظة ضرب من عدم الانسجام بين الحصص السّنويّة المخصّصة لكلّ مادّة والبرنامج المرسوم من حيث الكمُّ فالوقوف عند كلّ عنوان في المسطرة ينتج عنه تقصير في استكمال البرنامج حتما خاصّة إذا ما وضعت في الحسبان راحات الأعياد الوطنيّة والدّوليّة وكثرة الرّاحات الاستثنائيّة العامّة والخاصّة.

ثالثا: عائق التّواصل

لعلّ أهمّ وسيلة إجرائيّة للتّواصل داخل القسم هي الصّوت والصّوت، بغضّ النّظر عن خصائصه الذّاتيّة الأصليّة، لا بدّ له من وسط هادئ غير مشوّش يمرّ عبره من المتكلِّم إلى السّامِع كما ينبغي أن يكون السّامع في موضع قريب يمكّنه من تلقِّي الرّسالة بدون عناء سمعيّ حتّى يعي مدلولها.

وعليه فإنّما يحول دون اكتمال عمليّة التّواصل داخل فصولنا الدّراسيّة هو من بين أمور أخرى: اكتظاظ القسم الدّراسيّ بكمّ هائل من التّلاميذ قد يصل أحيانا في المرحلة الثّانويّة إلى ستّين تلميذا للفصل الواحد أو أكثر في المدن الكبيرة الّتي تعاني من النّموّ الدّيمغرافيّ المطّرد، أضف إلى ذلك عدم اختيار المكان المناسب لتشييد البنايات المدرسيّة إذ هي عادة تشيّد في مكان الرّحمة من الأحياء السّكنيّة أو إذا أقيمت في طرف زحفت على بقعتها المساكن الهشّة ممّا يشوّش الوسط الخارجيّ بالضّوضاء وما دئب عليه حتّى الآن علاجا لهذه المسألة ليس شيئا آخر غير جهد المدرّس في رفع صوته وتجواله بين الصّفوف أثناء الإملاء خاصّة علما بأنّ المدرّس ليس دائما مجتهدا في عمله فقد يميل إلى المجهود الأدنى غير عابئ باحتجاج التّلاميذ عليه.

رابعا: دور الوسط الاجتماعيّ في العمل على تدنّي المستويات

فإذا كان من خصوصيّات التّربيّة الحديثة تطبيق مبدأ المكافأة والعقاب توخّياً للطّريق الأمثل لضمان الاستفادة وحرصا على النّظام في نفس الوقت فلعلّ من غير الغريب في هذا الصّدد ارتباك مجتمع كمجتمعنا في بداية انفتاحه على التّعليم النّظاميّ في التّعامل مع النّظام التّعليميّ الجديد لكن ما يدعو إلى العجب أنّه كان في البداية يتّسم في تعامله معه بنوع من الانضباط والاحترام مصدره توجّس الخيفة من القائمين عليه وهذا طبعا يتعلّق بالمنخرطين الأوائل في سلك التّعليم النّظاميّ وحدهم على نحو فيه تقديس وخوف وتحفّظ يملأ النّفوس آنذاك وبمرور الزّمن وازدياد نسبة التّمدرس اصطبغ التّعليم بـ"الصّبغة المحلّيّة" وأصبحت ظاهرة التّسيُّب والفوضى تبيض وتفرخ في رحاب الحجرات فكأنّما يسير مستوى التّعليم في انحدار مطّرد إلى الحضيض فمن هو المسؤول عن ذلك يا ترى؟ هل هو المدرِّس؟ أم التّلميذ؟ أو الإدارة أو أهالي التّلاميذ؟

لا شكّ أنّ للوسائل والظّروف العامّة دورها في ذلك على نحو ما ذكر، لكن ما يبدو مشكلا العامل المحوريّ في بلورة الظّاهرة بالشّكل الّذي هو عليه الآن هو عقليّة المجتمع الّتي تتجلّى من خلال سلوك المدرّس والتّلميذ والإدارة وبشكل أوضح وأجلى في تعامل الأهالي مع هيئة التّدريس في شأن التّلميذ وكلّ عنصر من هذه العناصر يحمِّل الثّاني مسؤوليّة خرق النّظام والحقيقة أنّهم كلّهم مشتركون في العمليّة والعقليّة السّائدة هي المرجع والمنطلق.

إنّ مبدأ المكافأة والعقاب لم يعد له معنى فبمجرّد أن يحصل التّلميذ على درجة لا ترضيه يستطيع أن يسأل بإلحاف المدرّس أن يتصدّق عليه بنقاط من جيبه وهو إذا كان بخيلا فإنّه لن يبخل على زميله أستاذ مادّة كذا فالتّلميذ لن يعدم وجود أحد من معارفه أو زملائه ليكمله في الأمر والأستاذ السّخيّ أحبّ إلى الإدارة والجمهور من الأستاذ البخيل ثمّ إنّ التّفوّق لا يشجّع غالبا فما الفرق بين أوّل القائمة وآخرها؟

وفي نهاية السّنة عادة يكتسب الأمر أهمّيّة خاصّة حيث ينتبه الأهالي في آخر لحظة إلى أنّ أبناءهم مهدَّدون بالرّسوب وتبدأ الاتّصالات على نطاق واسع من أجل الحصول على نقاط عند هذا الأستاذ وذاك بغية تفادي النّهاية الأليمة وأبناء الطّبقات الرّاقية والفئات "العليا" أكثر إلحاحا وإلحافا وللأهالي في ذلك طرائق معروفة منها مثلا عرض العضلات المتّصلة بالمال والجاه ترغيبا وترهيبا لهيئة التّدريس والمبالغة في تهويل الأمر وتعظيمه إلى حدّ الزّعم أنّ عدم نجاح التّلميذ قد يحيله إلى الجنون أو الانتحار وهي نتائج طبعا ينبغي تفاديها بأيّ ثمن ولربّما كانت من وراء ذلك حِيَل التّلاميذ أنفسهم.

ومهما يكن من أمر فإنّ هذه الحيل أثبتت جدارتها في هذا المجال ذلك أنّ هيئة التّدريس تحرص على تفادي حمل لواء النّزاعات والقلاقل والأستاذ محكوم عليه داخل الهيئة بالتّجاوب مع هوى الإدارة ومقتضيات المقام فلا مندوحة إذاً من تفادي كلّ الحساسيّات المجتمعيّة سواء فيما يتعلّق بتقويم المعلومات أو السّلوك فعليك بالتّسامح. التّسامح عزيزي المدرّس والتّسامح في القاموس المحلّيّ له خصوصيّته الدّلاليّة الّتي ينبغي ألا تغيب عن ذهنك ولو كنت أبعد عن التّخصّص في مجال اللّغة واللّهجة!

هذا إذاً عمّا يجري في رحاب الحجرات على مدى السّنة الدّراسيّة وإبّان امتحانات التّجاوز بيد أنّ الدّاهية الدّهياء والحادث الإدّ، يأتي عند وصول التّلميذ عتبة (أو عقبة) الامتحان العامّ الكبرى تلك العتبة الّتي لا ينجو منها بارّ ولا فاجر ولا تجدي فيها التّدخّلات والوساطات إلاّ من (رَحِمَ ربُّك) وهم قلّة على كلّ حال. خاصّة في الأعوام الأخيرة حيث اتّخذت آليات كالعقل الإلكترونيّ حدّت من فوضى العمليّة كما تمَّ التّخلّص من بعض العناصر النّاشطة في عمليّات التّزوير والغشّ.

تلك إذاً أهمّ العوائق الكامنة وراء تدنّي المستويات في صفوف تلاميذنا وطلاّبنا حسب ما عاد به هذا القلم من جولته في رحاب الحجرات فما هي طرق العلاج النّاجع لهذه الظّاهرة؟!

الشعب، 21 / 04 / 1992

أبجديات

إنّ من جملة الخصوصيّات الكثيرة الّتي يتميّز بها مجتمعنا عن باقي مجتمعات الدّنيا من حيث أنماط التفكير والممارسات هي تلك المرونة الملاحظة في التّعامل مع القوانين المرسومة "المعمول بها" ذلك أنّ مَن تُوكَل إليهم مهمّة تطبيقها عادة ينطلقون من مقتضيات المقام ويضعون المصلحة فوق كلّ اعتبار فالقوانين إذا جافت المصلحة جاز إهمالها وتعديلها إن استدعى الأمر ذلك والمبادئ إذا تعارضت مع المصلحة إنّما هي ضرب من التّفكير الطُّوباويّ وعدم الصّراحة أو الصّدق مع الذّات.

والمصلحة عزيزي القارئ هي مصلحتك ومصلحتي ومصلحة أطر الانتماء الّتي أجري وإيّاك في فلكها ومصلحة سُمْعَتَيْنا عند جمهور العامّة (والخاصّة) وأنا وأنت لا نملك أن نغيّر عقليّة مجتمع إلاّ أن نشكّل عقليّة مجتمع لحسابنا ولا بدّ من ركوب الموجة كي لا نذهب ضحيّة مبادئ لا تسمن ولا تغني من جوع واعلم أنّ كثرة المطالعات وزيادة المحصول المعرفيّ تقصم ظهرك وتفصل شخصيّتك إلى شطرين لا ينفصلان ولا يأتلفان أبدا.

وإذا قدّر لك أن تولّيت امرا من الأمور العامّة فليكن في علمك أنّ ثمّة أنماطا خمسة من البشر في مؤسّساتنا العموميّة لا تنطبق عليها القوانين المسطّرة في الأوراق ومن يحاول ذلك يفعل شططا ويلاقي عنتا ويُلْقى به من النّافذة في المزبلة حتّى يدجن ويعود إلى "الجادّة" ساخرا من سلوكه في أيّام الجموح الصّبيانيّ والأنماط الخمسة المذكورة هي:

1- **أهل "الدّفعة القويّة"**: وهم أهل صلة بأحد مراكز الثّقل في الدّولة وهؤلاء بطبيعة الحال قوم لا يُسْأَلون عمّا يفعلون وطلباتهم كرواتبهم مضمونة حيثما حلُّوا.

2- **أهل "جهة معك"**: والجهة كالوطن بل هي أخصّ منه في الاصطلاح وعليه فلا ينبغي لك أن تحاسب هؤلاء إذا فرّطوا في واجبهم أو تكلّفهم من العمل ما لا يرضون ولو فعلت عرّضت نفسك إلى عَتَب ذويهم ولربّما سبّب ذلك سُوءا في العلاقات بين "مجموعاتكم" المرتبطة في المصالح.

3- **أقرباؤك**: إنّهم بِطانتك ومَن يحمونك عند المِلمّات وأنت سفيرهم المعتمد هنا ولو لا وجودك لما اختاروا هذه المؤسّسة بالذّات مقرّا للعمل.

4- **ذوُو الشّخصيّة**: المدّاحون المتملّقون أهل الكلام المعسول. ولأولئك دور إعلاميّ لا يُستهان به، لهم خبرة في مجال المقارنات بين المسؤولين وتقصّي أنباء الحياة الخاصّة لهم ولا يؤمن أن يكون من بينهم مخابِرون وعليه فلا ينبغي التّعامل معهم بصراحة طالما أنّهم مجهولو حال.

5- **نساء ممّن عُرِفن بقوّة العارِضة والتّفنّن** في صنوفالهجاء المقذع والعمل على مختلف الجبهات فمثلك لا ينبغي أن يتعرّض لهنّ بما يكرهن لأنّ صوْن العِرض أولى.

وأغلبيّة هذه الأنماط ذات علاقات واسعة وصلة بما يجري وراء الكواليس ونشاطات أخرى فإيّاك أن ترفض لهم استخدام الهاتف في وقت من أوقات العمل واعلم أنّهم أهل حاجات ومآرب ولكي تجنّب نفسك الوقوع في الحرج في المعاملة معهم كُنْ مغلوق الباب كثير الغياب بطيء الجواب.

*إنّ الجِدّ في العمل عزيزي مظهر من مظاهر عدم الثّقة في النّفس (ضعف الشّخصيّة) والصّرامة ضرب من التّعقيد ومحاولة تحقيق الوجود والتّصعيد عن عُقَدِ النّقص فعليك بالواقعيّة والمرونة والسّماحة كما يفهمها مجتمعك فأنت لا تستطيع أن تعيش في جزيرة مع أهل مدينتك الفاضلة الصّوريّة بعيدا عن الأنظار.

تلك أهمّ أبجديّات السّلوك الإداريّ داخل المؤسّسات العموميّة عندنا والمسؤول يكون موفّقا في شقّ طريقه بين الأشواك إن اهتدى إلى شخص أو شخصين ممّن يُعتَبَرون في نظر الأغلبيّة عبيدَ عملٍ جُبناء، يحملون على كواهلهم الضّروريّ من العمل كي تبقى العجلة سائرة ولو بشكل وئيد ولن يُعْدَم مثل هؤلاء وإن كانوا قلّة ولا بأس بتشجيعهم ببعض المكافآت لكن على أن لا يمسّ ذلك مصالح أيٍّ من المجموعات أو الأنماط المذكورة فمصلحتهم فوق كلّ اعتبار لأنّ حملة اعلاميّة يقومون بها وراء الكواليس قد تعصف بك فجأة وتزلزل الأرض من تحت قدميك وربّما عزّ رجوع الأمور إلى حالتها الاعتياديّة إلاّ بعد جهود مضنية وأثمان غالية ولو كانت دعامتك فولاذيّة وحظّك من المحاماة عظيما.

وهكذا فإنّ ثمّة تحدّيات كثيرة ستواجهها فليكن حظّك من الذّكاء كبيرا ومثلك من حفظ الوصايا ووعاها في نهاية المطاف.

الشّعب، 1992/09/14

فرسان الكلام

فرغتُ لتُوّي من قراءة كتاب "أوهام المثقَّفين" لناجي بن نصر ولأنّ كلمة "مثقَّفين" و"ثقافة" هذه تقرع مسامعي أينما توجّهت دون أن تتجسّد لي في كيان فاعل فإنّني عاودت قراءة أوّل تعريف للمثقَّف يرد في صفحات الكتاب فإذا هو يقول: "هو امرؤ ذو رسالة إنسانيّة في الحياة" طبعا هذه الرّسالة تقتضي وجود زاد معرفيّ ووعي بالواقع ممّا يشكّل رؤية معيّنة في مناط الرّسالة لأنّ فاقد الشّيء لا يعطيه كما أنّها بالضّرورة تتطلّب تضحيّة وعطاء متميّزا إذ هي رسالة حياة.

لم يكن هدفي من تحليل هذا التّعريف المختصر إلاّ أن أعرف ما هو حظّ مثقَّفينا ممّا يستدعيه هذا اللّقب من خصوصيّات فما من شكّ في أنّ لنا مثقَّفين ولو على طريقتنا الخاصّة فهم كُثُر ولهم حضور لا يُستهان به في مجالسنا ونحن "الدّهماء" نثق فيهم ونستشيرهم في الأمور بل إنّ رؤيتنا للأشياء تتشكّل في ضوء ما رسموه لنا إلاّ أنّ بلبلة رؤيتهم واختلاط أوراقهم قد يسبّب لنا حيرة تجعلنا نقف أحيانا منهم موقف عتَب وتأنيب.

المهمّ أنّ القلم قرع النّافذة وأطلّ من برجه العاجي فوجدهم يتعاطون كؤوس الشّاي جالسين يتجاذبون أطراف الحديث في مواضيع شتّى ولم يلبثوا حتّى تعالى الصّخب وطفقوا يتبارَوْن في الكلام والكلام.

كان يتابع حياتهم العامّة والخاصّة متابعة بعضهم لبعض كالجاسوس فوجدهم قوما يأكلون الكلام ويشربونه ويتنفّسونه لا قوام لهم إلاّ به بهذه الأحاديث يقضون بياض يومهم في المؤسّسات العامّة يتحدّثون ويعودون في المساء حاملين حقائبهم المليئة بمشاهداتهم اليوميّة فيفرغونها في حلق الشّاي المسائيّ (الذّهبيّ) وفي مجالس السّمر ولا يكادون يستمعون للمذياع أو يشاهدون التّلفاز من كثرة الكلام. إنّهم لا يشاهدون إلاّ ليعلّقوا تعليقاتهم المعهودة.

وهكذا فإنّ مجالسهم نبع لا ينضب للشّائعات وشلاّل دافق يمضي في كلّ المنعرجات بالتّكهّنات.

ومن ينصت إلى أحاديثهم يجدها تنتقل من الحديث في الأمور العامّة ومستقبل البلد ومن يَعْزِل ومن يَلي إلى أخصّ خصائص الحياة الخاصّة للأفراد فهم لا يفتؤون يثيرون الحساسيّات القديمة ويتتبّعون النقائص ويقتنصون شوارد العيوب وكأنّما هم متفرّجون وكلّ إليهم دور الملاحظة الخارجيّة، فحسب ولا يعنيهم من الأمر إلاّ أن يسجّلوا ملاحظاتهم على الهواء في خانتي (صحيح وخاطئ) إنّهم فرسان الكلام والاستهلاك وضياع الوقت يصطادون في مياهنا ولأنّهم مثقّفونا: أمل الأمّة وبُناة المستقبل أهل الكرّاسات الكبيرة المحبّرة فإنّنا لا نشكّ في أنّ ما يرَوْن هو الصّواب بعينه وما يقومون به من سلوك هو النّموذج الصّحيح إلاّ أنّ ما يدفعنا إلى التّقصير أحيانا في تقفّي آثارهم هو أنّهم تارة ينهوننا عن سلوك فينعرجون إليه ويقومون به بنفس الدّرجة أو أكثر. إنّهم ينتقدون على نسائنا سلوكهنّ المنزليّ في حوانيت السّوق فيمثّلون الدّور ذاته في المكاتب ويستخفّهم الطّرب متى دعوا إلى مثله في السّوق بل يردون الحياض غير مدعوّين وهكذا يدعونهنّ للتّعلّم والمطالعة في أوقات الفراغ ولا يدعون لهنّ أوقات فراغ بل يسحبونها من تحت أقدامهنّ لينعموا بها في جلسات الكلام.

عزيزي المثقّف، أين هي رسالتك الّتي حدّثنا عنها ناجي بن نصر، نجّاك الله ونصرك، لو أنّك تعاني من بُكْم أو عيب نطقيّ لقلت إنّك مرسَل ولكنّك عاجز عن تبليغ رسالتك. أمّا وأنت بحمد الله فارس كلام لا يُشَقُّ له غبار في هذا المجال فهل نسيت الرّسالة أم أيُّ خطب دهاك عزيزي فأعياك عن الفعل وأطلق لسانك بالاسم؟! عفوا سيّدي المثقّف إنّه عَتَب موسميّ جاء متزامنا هذه الأيّام مع استفحال أزمة الإنسان العربيّ وبلوغها ذروتها فطبعه الجوّ المتوتّر بطابع السّخريّة المرّة، سخريّة المنهزم عافاك الله من الانهزام أمام الواقع والحلم فلا غضاضة فأنت إنسان اجتماعيّ متكيّف مع واقعك كما هو لا كما ينبغي أن يكون والنّكسة تضرب على البصر غشاوة فعسى أن ترتدّ بصيرا وعلى كلّ حال فنحن لن نفقد الأمل فيك أبدا.

الشّعب، الثّلاثاء 26 مارس 1992

إذاالصّحف نُشِرت...

يكاد يكون اسم "صحيفة" مرادفا لاسم "كتاب" في الاستعمال العربيّ قديما إذ إنّ كلاّ منهما يطلق على الخطاب المكتوب أيّا كان ولأنّ أسلافنا العرب على العكس منّا لا يكتبون من الخطابات إلاّ ما كان ذا أهمّيّة مخصوصة كالمواثيق والمعاهدات فإنّ كلمتيْ "صحيفة وكتاب" تُوحِيان بفائدة مضمونيّة متميّزة أضف إلى ذلك أنّ الصّحف مفردا وجمعا تندرج ضمن حقل دلاليّ ذي مرجعيّة ترتبط في ذهن المثقَّف العربيّ بالدّيانات السّماويّة المقدّسة فهنالك صحف إبراهيم وموسى وصحف أعمال ابن آدم وصحيفة مقاطعة قريش لبني هاشم غداة بعثة خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وسلّم كما أنّ لفظ المصحف اشتقّ للدّلالة على الكتاب الّذي يحمل بين دفَّتَيْه القرآن الكريم وناهيك بذلك برهانا على عظم شأن الصّحف في تاريخنا القديم.

أمّا في القاموس اللّغويّ المحَلّيّ عندنا فإنّ اسم صحيفة خاصّة يكاد يكون منحصِرَ المدلول في صحائف الأعمال الّتي تعرض في الآخرة وما تُوحِي به من عِقاب وحساب وشقاء وسعادة أُخْرَوِيَيْن، ومن ثَمَّ فإنّ هناك ضمن الأحاديث الدّارجة على الأسن في الكلام العادي ومن باب التّوكيد أن يُقسم المتكلّم إذا أراد أن يؤكّد جهله بأمر ما على أنّه أكثر اطّلاعا على ما في "صحيفته" منه عليه ممّا يجعلنا نتساءل ماذا حصل عندما أصبح الكثيرون منّا والحمد لله يدركون جيّدا مضمون صحائفهم بل إنّهم قادرون على التّصرّف فيها محوا وإثباتا؟

نعم لقد اشْتُقَّ تَجَوُّزا من الفعل المضعَّف "صحف" مصدر دالّ على مهنة جديدة لها طرائقها وآلياتها في التقاط الأخبار وبثّها كما أنّ لها دورها الفعّال في حياة المجتمعات الحديثة فما هو حظّ مجتمعنا من ذلك؟ خاصّة في هذه الأيّام الّتي تنتشر فيها الصّحف بشكل يُنذِر بقيام السّاعة وشيكا لا قدَّر الله.

إنّ مهنة الصّحافة الجديدة علينا شأنها في ذلك شأن المِهَن ذات البُعْد النّجوميّ ما زال يطبعها الارتجال ذلك أنّ التّجربة فيها عادة تتِمّ في الميدان على طريقة المحاولة والخطأ فالأساس النّظريّ الّذي تنبني عليه الممارسة الفِعْلِيّة غائب أو مهتزّ في أغلب الأحيان.

وهو أمر يرجع إلى انعدام معاهد التّكوين الصّحفيّ في البلاد وعجز المنح الأجنبيّة عن توفير الكَمّ والنّوع الكافِيَيْن لدَوَران عجلة الجهاز الصّحفيّ بشكل يضمن الفائدة والاستمرار فأكثر الّذين يعملون في سلك الصّحافة لا حظّ لهم من التّكوين اللّهمّ إلاّ تَلَقِّي بعض التّدريبات أثناء دورات قصيرة يبعثون فيها إلى الخارج من فترة إلى فترة على طريقة تحسين الخبرة وذلك طبعا بعد أن يمارسوا العمل الصّحفيّ بلا مؤهّلات.

صحيح أنّ وازع الهواية له دوره في الحماس للعمل والعطاء كما أنّه في غياب معاهد التّكوين والحاجة الماسّة لوجود صحافة محلّيّة لا بدّ من إفساح المجال لغير المختصّين مبدئيّا كعمل استثنائيّ لكنّ استمرار المسألة وعمومها من شأنه أن يؤدّي إلى ضرب من الضّرب على غير هدى والخلط في النّظام خاصّة في عصر تُوضع فيه حواجز سميكة بين المعارف والمِهَن على كثرتها وتشعّبها ويُعَد فيه الفرد نظريّا إعدادا يضمن له عطاء أكثر في مهنة معيّنة.

إنّه عصر التّخصّص بما له وما عليه فلا مندوحة عن الانسجام في نسقه أو الشّذوذ عنه علما بأنّ أيّ شذوذ لا يضع بديلا في البرامج والأهداف يُعْتَبَر خرقا للنّظام وعشوائيّة وقلّة نضج ينتج عنها ما نتج من هشاشة في العطاء الإعلاميّ عندنا ولئن وجد من بين من دخلوا إلى هذه المهنة نفر أثبتوا جدارتهم بمقدرة ذاتيّة وخبرة عصاميّة فإنّ الأمر لا يمكن أن ينسحب على أفواج كثيرة تدخل من نفس الباب ولا تملك الخبرة والاستعداد إلاّ مجرّد الحماس للاستفادة المادّيّة فحسب.

هذا وما صدق على الصّحافة المسموعة والمرئيّة يصدق على الصّحافة المكتوبة إلاّ أنّ الصّحافة المكتوبة ذات خصوصيّة عامّة وآنية في بلدنا هذه الأيّام مما يستحقّ في نظرنا وقفة وأيّ وقفة؟ ذلك أنّ وجودها يشكّل حدثا إعلاميّا عظيما فهكذا وبعد أن كانت لا توجد بشكل مستمرّ إلاّ صحيفة وطنيّة إخباريّة واحدة هي صحيفة "الشّعب" الّتي تُعْتَبَر مَحَطّ رحال أقلام الصّحفيّين الهوّاة من جميع أرجاء الوطن إذا بالصّحف تنتشر بسرعة انتشار الموضة حتّى أصبحت تنافس في عددها الصّيدليّات والمصحّات الخصوصيّة وحوانيت الخردوات فاستعارت الأسماء والألقاب من معجم الفضل

واليُمن والنّور حتّى استنفدتها ولكنّنا في نشوة الفرح العارمة فوجئنا بالمولود الصّحفيّ العزيز يُصاب بطاعون غريب فأيّ شيء دهاه دون أمثاله يا تُرى؟ فلماذا الصّحف وحدها؟ لماذا الصّحف؟

إنّ من يعودها هذه الأيّام يجدها فعلا تحت وطأة الدّاء في حالة يُرْثَى لها فمنها ما مات قبل أن يولد فلم يُعَقِّب إلا اسما مهملا في سجلاّت وزارة الدّاخليّة ومنها ما خرج إلى النّور يوما واحدا فمات وثمّة ضرب ثالث مات نصفه وبقي نصفه حيّا والعياذ بالله فهل يُبعث نصفه الميّت أم يموت نصفه الحيّ كسابقه؟ ومنها ما ضرب مواعيد لجمهوره فلبث الجمهور ينتظر بدون جدوى وبعد مدّة طويلة طلع عليهم منحول الجسم يعاني من "أنيما" حادّة ممّا يثبت أنّه خارج من مرض عضال وهناك نمط آخر وُلد ناضجا فعزّ عليه البقاء ربّما لأنّه خارج على سنّة الحياة في التّدرّج والقليل القليل ما سلم من الوباء حتّى الآن.

فما هي الأسباب الكامنة وراء نموّ جرثومة الوباء المذكور في وسطنا بمجرّد انطلاق الضّوء الأخضر لحرّيّة الصّحافة؟

1- نقص الكادِر البشريّ القادر على الإنجاز علميّا وفنّيّا فدراسة المشروع الصّحفيّ من هذا النّوع ينبغي أن يقوم بها متخصّصون صحفيّون ذوُو تجربة سابقة وأن يُراعُوا جميع الجوانب المتعلّقة بإنجازه واستمراره ولا يكفي أن تُعدّ قصاصة عشوائيّا فتعنون بدراسة وترفق بملفّ طلب الرّخصة وعليه فلا بدّ من دراسة نظريّة محكمة يُعِدّها متخصّصون لتنبني عليها ممارسة جادّة ومتى بطل الأساس انهار البناء.

2- ضُعف الاعتماد الماليّ ممّا ينتج عنه العجز عن المواصلة بسرعة وذلك لأنّ مشروعا كهذا يتطلّب وقتا طويلا لتعود فيه المردوديّة أكبر من الاستهلاك ولعلّها سمة أيّ مشروع ذي طابع تجاريّ فالرّبح لا يمكن أن يكون مضمونا مسبقا ولا بدّ من العمل الدّؤوب لتحقيق الأمل على الأمد البعيد لكن مهما كان الاعتماد الماليّ هشّا ضئيلا فإنّ صاحبه كمن يدفع ما لديه في لعبة القمار وقتا واحدا ليجرّب حظّه من الرّبح والخسارة في لحظة ويحصل على النّتيجة.

3- ضَعف القُوى الشّرائيّة في البلد ذلك أنّ مستهلكي الثّقافة هم أقلّ النّاس حظّا من الدّخل الماليّ.

4- عدم تأصّل عادات المطالعة في جمهورنا وحتّى من يُحْسَبون منهم على الثّقافة فالتّحصيل المعرفيّ عندنا عادة ينتهي مع فترة ما قبل الوظيفة وفترة الشّباب خاصّة ما يتّصل منه بالثّقافة العامّة والتّسلية.

5- الفوضى المجتمعيّة والفراغ فأيّ صحيفة يمكن أن تكفي نسخة واحدة منها مئات الأشخاص إذا وضعت في مكتب من مكاتبنا أو دخلت منزلا من المنازل وبدلا أن يشتري الواحد نسخة يمرّ على فلان في مكتبه أو يزور آل فلان كما تعوّد ليطالع الصّحيفة عندهم.

6- عزوف الكثير من مثقّفينا عن الكتابة الصّحفيّة وذلك لكثرة المشاغل الوظيفيّة وكثرة الالتزامات الاجتماعيّة وانعدام الحوافز المادّيّة فرغم ثراء ساحتنا الآن بالمواضيع الخصبة للكتابة فإنّ الكتّاب قليلون جدّا وعليه فإنّ هذه العوامل المتشابكة هي الّتي عملت على تعثّر التّجربة الصّحفيّة الجديدة ومهما يكن من أمر فإنّها حقنت السّاحة الثّقافيّة المريضة بدم جديد بدَا واضحَ المفعول في إنعاشها كما أنّه ساهم في تضييق الهوّة بين أرباب العمل وأرباب الثّقافة وساهم في الرّفع من مستوى الوعي لدى الجميع فعسى أن يقف المولود على قدميه أكثر فأكثر ويؤتي أكله بمزيد من العطاء.

وقفة مع المؤلَّف الوطنيّ

شيء جدير بالتّنويه والإشادة بل هو مكسب يبعث على الارتياح والثّقة بالمستوى المعرفيّ للبلد أن يولَد بين ظهرانينا مؤلِّفون جدد تخرج مؤلَّفاتهم إلى سوق الكتاب في أثواب قشيبة. أحقّا يأخذ مؤلِّفونا زمام قافلة التّأليف والبحث من جديد ليجوبوا بها الآفاق بعد ما عرفت من إحجام وتباطؤ في العقود الأخيرة؟

إنّ الشّيء الأهمّ من ذلك هو أنّهم أخذوا يفتحون نوافذ كانت مغلقة على مجالات ما عرفها الأجداد ولا كانت مطروقة في هذا البلد ولَعمري لَمِمّا يبعث على الارتياح أكثر وجود النّشر في بلدنا هذه الأيّام ولو بشكل محدود فهو لا شكّ بشير بِغَد أفضل في هذا المجال إذا ما ظلّت خطاه سائرة إلى الأمام واستغلّ لانتشال الموروث الثّقافيّ المكتوب من الضّياع في المقام الأوّل كما واكب حركة البحث والتّأليف في البلد بنوع من التّركيز على المؤلَّفات الجادّة ذات الطّابع المتميّز في مجالها من حيث العمق أو الإبداع أو الطّرافة وحبّذا لو اجتمع كلّ ذلك فيما يصدر لدينا من مؤلَّفات.

إنّ هذا المكسب يجب أن يُستَغَلّ بحِكمة طالما أنّه قد ظلّ بعيدَ المنال رغم ما يلاحظ من حاجة إليه فكم من مرّة خشِينا ونحن نتجوّل بين أكوام المخطوطات الثّمينة في هذا البلد أن يذهب رصيده من المؤلّفات هباء بفعل عوادي الزّمن وانشغال بنِيه عن الاستنساخ الّذي كان الوسيلة الوحيدة المتاحة لصيانة الموروث الثّقافيّ المكتوب من الضّياع ذلك أنّ ضياع هذا الجزء من التّراث هو ضياع لتاريخ البلد وجهود أجدادنا وهو بالتّالي انفصام للحاضر من الماضي وكم من مرّة كذلك تجوّلنا في أسواق الكتاب الّتي تقذف بها دُورُ النّشر. آلاف الكتب في كلّ يوم. ننظر يمينا وشمالا عسى أن تقع أعيننا على مؤلَّف موريتانيّ مطبوع فلا نجد عادة غير كتب قليلة أغلبها منشور خارج البلد لأنّ أوّل كتب لنا عرفت طريقها إلى النّشر هي كتب بعض العلماء الشّناقِطة المهاجرين في الشّرق فقد

كان أوّل كتاب موريتانيّ يُطبَع هو كتاب "الوسيط في تراجم أُدباء شُنْقِيط" لمؤلِّفه أحمد بن الأمين وقد نُشِر سنة 1911 بالقاهرة.

هذا ولئن كانت خواطر الإشفاق والغيرة على الموروث الثّقافيّ المحلّيّ والتّوق إلى حاضر ثقافيّ مزدهر كثيرا ما راودت طلائعنا منذ عهد الاستقلال وأوائل الانفتاح على العالم الخارجيّ فإنّ حصيلة العقود الثّلاثة الماضية من المؤلّفات المنشورة لا تكاد تتجاوز عدَّ أصابع اليديْن وأهمّها منشور في الخارج وبمساعدة جهات خارجيّة وهو أمر يرجع إلى ضعف الإمكانيات العامّة وعزوف المستثمرين الوطنيّين عن الاستثمار في مجال النّشر نظرا لأنّ المال والعلم قلّما اجتمعا في يد أحد منّا ولذلك فإنّ المخطوطات الموجودة لدى وزارة الثّقافة وكذا الموجودة لدى الأهالي لم يحظَ منها بالطّبع إلاّ عدد قليل مع أنّ ما هو محفوظ منها بدار الثّقافة وحده يصل إلى زهاء 4000 ولا شكّ أنّها تشتمل على نفائس ثمينة ومفيدة لو طُبِعت لكانت أكثر انتشارا وأعمَّ فائدة وعليه فإنّ ثمَّة حاجة مزدوِجة إلى وجود مطابع ودُور نشر تضطلع بشِقَّيْ العمليّة المتمثّلين في انتشال التّراث المهدّد من جهة ودفع عجلة التّأليف من جهة أخرى وما حصل في هذه الأيّام من وجود بعض المطابع رغم محدوديّة إمكانياتها قد أخذ في دفع عجلة التّأليف إلى الحدّ الّذي نراه الآن مع قِصَر عمر التّجربة المذكورة وضخامة التّكاليف المادّية المتعلِّقة بالنّشر لكن وكأيّ تجربة جديدة لا بدّ من أن يظهر في ممارستها ضرب من المفارقات عند البعض بسبب الحماس لخوضها سريعا والحرص على إحراز قصب السّبق والرّيادة في أيّ مجال جديد.

وهو أمر قد يتأتّى لِمَن كان متوفِّرا على آليات تأليفيّة معيّنة واستطاع أن يحسن استغلالها وأن يبرزها في أثر جادّ وهذا قد يحدث إذ لا شكّ أنّ من بيننا مؤلِّفين مقتدرين لكنّهم على كلّ حال قلّة لحدّ الآن وليسوا حديثي العهد بحقول المعرفة والدّرس لأنّ التّأليف كالعلم لا يهبط من السّماء في عهود انقطاع الوحي عن البشر كما أنّه يحتاج إلى محصول معرفيّ قد لا يتأتّى للكثيرين فمن غير المستساغ أن تدخل "الكزرة"[1]ميدان التّأليف وأن نظنّ أنّ تأليف كتاب مثل فتح صيدليّة أو دكّان للخردوات أو إصدار جريدة أسبوعيّة فلا يكفي أن نأخذ مبلغا ماليّا ونرصده في البنك ثمّ نقضي أيّاما ونحن نتجوّل بين المكتبات ونسأل فلانا وفلانا نغلق الباب علينا ساعات لنجمع شتات كلمات

[1] الكزرة تعني في اللّهجة المحلّيّة أخذ الشّيء عنوة وقد عُرفت في الآونة الأخيرة بمعنى الاستيلاء على القطع الأرضيّة بدون ترخيص شرعيّ.

تائهة في جراب ثمّ ندفعه إلى المطبعة لنصدر كتابا يحمل اسمنا الخاصّ ويعدّد مآثرنا على النّحو الّذي نريده.

إنّ مثل هذا النّوع من القفز إلى المجهول يسيء إلى صاحبه أكثر ممّا يخدمه ويسيء إلى سمعة البلد أكثر ممّا يؤكّد حضوره في سوق الكتاب. إنّ التّأليف والنّشر يستهلكان من المال والوقت ما لا ينبغي أن يذهب هدرا أمام انعدام الآليات الضّروريّة لدى الشّخص المؤلّف.

إنّ ثمّة ظاهرة أصبحت معهودة لدينا وهي ظاهرة المحاكاة والتّنافس فأيّ محاكاة وأيّ تنافس هذا الّذي يدفع الشّخص إلى أن يهرف بما لا يعرف ويُوَقِّع شيكات بلا رصيد؟

صحيح أنّ ثمّة جهات معيّنة قد تشجّع مثل هذا النّوع من التّجارب إمّا جهلا بحقائق الأشياء وإمّا مجاملة وتشجيعا للجهود المبذولة في هذا المجال أيّا كان مستواها وإمّا إرضاء وتقرّبا من أوساط مخصوصة لكن لن تلبث تلك الزّوبعة أن تهدأ ويبقى الشّيء على حقيقته مهملا لا أحد يلتفت إليه فكما يقول المثل: "للباطل جولة فيضمحلّ". أضف إلى ذلك أنّ التّأليف خضع لناموس التّطوّر فلم يعد مقبولا أن يعطي المؤلّف حقائق تاريخيّة أو علميّة غير موثّقة ولا أن يتحرّر من المناهج المعهودة إلاّ إذا أتى ببدائل واضحة القواعد والأسس فمَطِيّة الإبداع ليست ذلولا دائما ولكي يتفادى ظهور مؤلّفات بلا قيمة يجدر إنشاء لجنة لتقييم التّأليف قبل النّشر. أقول هذا ولا أجزم بأنّ ما صدر لحدّ الآن محلّيّا ينطبق عليه ما ذكر آنفا ولكنّ الخوف من أن يحدث مثل هذا النّوع من الارتباك والقفز نحو المجهول في بداية مسيرة النّشر عندنا هو ما كان وراء كتابة هذه السّطور عسى أن يظلّ التّأليف والنّشر يتطوّران في خطّين متوازيين في بلدنا من حسن إلى أحسن.

تراثنا بين التّحجيم والتّضخيم

ليس من باب البكاء على الأطلال ولا من باب التّغنّي بالمجد المفقود إذ عزّ تحقُّقُ الأمل المنشود في الواقع المنظور وإنّما هو محاولة لتسمية الأشياء بأسمائها انطلاقا من التّحلّي بالأمانة العلميّة وتوخّي النّسبيّة في تقويم الأشياء في حدود الإمكان وبقدر ما يحالف التّوفيق القلم في ذلك. فحتّى لا ننزلق في متاهات التّمجيد ونسرف في المبالغات الّتي لا طائل من ورائها متى تعاطفنا مع الموضوع أو في المقابل نشعر بالخجل من قول الحقّ في حين أنّ شواهده قائمة ساطعة كالشّمس في رابعة النّهار ينبغي أن نضع النّقاط على الحروف وندرك جيّدا أنّ تراثنا المحلّيّ مِلك لنا جميعا بمختلف شرائحنا الاجتماعيّة ليس لأحد دون أحد ولا لجهة دون أخرى أو فئة قبل غيرها. إنّه رافد حضاريّ ينبع من أصول دوحة الحضارة الإسلاميّة الوارفة الظلال فيمتدّ عبر الزّمان والمكان في ديمومة مطّردة ولا يتفاوت أبناء هذه الحضارة في أنصبتهم منه إلاّ بقدر ما بذلوا من جهد في تفيُّؤِ ظلالها والامتياح من روافدها. ومن ثَمَّ فإنّ علماءنا وأبطالنا التّاريخيّين ينبغي أن يكونوا مصدر اعتزاز لنا جميعا بغضّ النّظر عن روابط الدّم والقرابة النّسبيّة.

إنّ قيمة تراثنا المحلّيّ ليست في كونه ماضيا في الزّمن ولا هي ناجمة عن كونه تاريخيّا الّذي ينبغي أن ننوّه به على غرار الآخرين وإنّما هي متأتّية والحقّ يقال من أنّ أجدادنا على هذه الأرض بذلوا جهودا محمودة وقدّموا عطاءات متميّزة في مجال الدّرس والتّدريس تحصيلا واستيعابا ونشرا وتمثّلا هذا بالرّغم من قساوة المحيط الطّبيعيّ وشحط الدّار عن المنابع الأصليّة تنضاف إلى ذلك بدائيّة الوسائل وفقدان الحكم المركزيّ المنظّم. إنّهم صنعوا حضارة الخيمة كما يُطْلَق عليها وما من شعب عاش تلك الحياة البدائيّة الّتي عرفوها واستطاع أن يحتفظ بثقافته أو يُنْجِب علماء.

ومَن يعود إلى الآثار المكتوبة أو يفتح نافذة على الذّاكرة المجتمعيّة لأبناء هذه البلاد يدرك جيّدا كم كان لهؤلاء من قوّة عزم ونضال ضدّ الجهل كما أنّ مؤلّفاتهم وشعرهم تعكس تلك المعرفة الموسوعيّة المتناثرة في فضاء إنتاجهم ممّا يؤكّد أنّهم كانوا يصطادون في شتّى مناحي بحر الثّقافة العربيّة الإسلاميّة خاصّة في عصورها الأولى إذ إنّ ثَمَّةَ شِبْهَ قطيعةٍ مع المنابع المذكورة منذ القرن الثّالث الهجريّ تقريبا.

إنّ هذا التّراث المجيد الّذي حمله إلينا أجدادنا أحفاد الفاتحين لا ينبغي أبدا أن نتعقَّد منه أو نغضي حياء لنقول: "يا ساتر يا ربّ ما فيه إلاّ اجترار! " إنّ هذا النّوع من الشّعور بالنّقص هو ما يعتبره أدونيس "ضرب من المسكنة العقليّة". إنّه تناسي الذّات في غمرة الانبهار بالآخر ولا شكّ أنّه غزا تفكير الكثيرين من أبناء الحضارة الإسلاميّة أيّام الانفتاح على الغرب في بداية هذا القرن وهو يعبّر عن مدى الانبهار بقدر ما يعبّر عن الإحباط والعجز وضيق الأفق سواء تعلّق الأمر بفرد أو أمّة من الأمم.

هذا وإذا كان التّصوّر المذكور يعتبر تصوُّرا مريضا طالما أنّه يغمط هذا التّراث حقّه فإنّه من الإساءة إليه بل من الإساءة إلى السّلف والخلف من أبناء هذه البلاد أن نزعم أنّهم اخترعوا وخلقوا المعجزات وأن نحيطهم بهالة تقديسيّة على طريقة العامّة وندّعي لهم من الكرامات ما لم يكن للأنبياء من المعجزات وحاشا الأنبياء إنّهم في هذه الرّقعة النّائية من الوطن العربيّ النّائم تحت جناح غراب الأحكام الاستبداديّة المحلّيّة والأحكام الاستعماريّة الغازية آنذاك ما كان لهم أن يكونوا أهل حضارة مادّيّة أو فكريّة متطوّرة إنّما حسبهم أن يستوعبوا ما وصلهم من الثّقافة الإسلاميّة العربيّة وأن ينشروا الدّين الحنيف وعلوم اللّغة في هذه الرّبوع من القارّة الإفريقيّة في تلك العصور وقد سَعَوْا سعيا حثيثا من أجل تحقيق هدفهم المنشود هذا وقاموا بذلك الدّور خير قيام.

الشّعب، 2 يونيو 1992

ما بال لهجة السّجّان هذه؟!

التّواصل خصوصيّة إنسانيّة أهمّ أدواتها اللّغة لأنّ الإنسان كما يقولون حيوان ناطق ومن ثَمَّ فإنّ وظيفة اللّغة الأساسيّة التّواصل ونقْل الأخبار معا وقد يتمّ التّواصل بدون نقْل معلومات ذات عبرة فكثير من لغة التّحايا (أنت بخير...لا بأس) لا يُراد به أكثر من التّواصل.

ذلك أنّ التّواصل هدف في حدّ ذاته حتّى إنّه لَمِن المعروف أنّ الإنسان لا يمكنه أن يُمضي نهارا كاملا حول أخيه لا يخاطبه إلاّ شعر بالضّيق والحرج إذ إنّ الألفة والتّواصل سمات إنسانيّة أصيلة كما أنّ التّجافي والتّنافر من خصائص الحيوان الأعجم.

وبما أنّ الإنسان المتحضِّر المتعلِّم الواعي جدير بأن يكون أبعد عن التّشبّه بسلوك الحيوان فإنّه مطالب بأن يتّسم سلوكه بضرب من السّماحة والتّودّد أكثر من غيره خاصّة إذا كان هذا الإنسان إلى جانب ذلك مزوّدا بنفحة من الشّريعة الإسلاميّة السّمحاء تدفعه بروح أداء الواجب إلى بذل الكلمة الطّيّبة أينما توجّه.

نعم إنّ هذه الألفة الإنسانيّة لم يخلُ منها مجتمع مهما كانت وحشيّته وتوغُّله في البداوة ولعلّ أمّتنا العربيّة حتّى في جاهليّتها كانت ذات حظّ كبير في هذا المضمار إلى أن قال بعض علماء اللّغة المحدَثين إنّ اللّغة العربيّة ذات ثروة كبيرة من مفردات التّبجيل والمجاملة بل من أكثر اللّغات ثروة في هذا المجال ولقد عرف أسلافنا على هذه الأرض اقتداء بالهدي الشّريف بحسن المعاشرة رغم أنّ الوسط الطّبيعيّ وطبيعة العيش لا تساعد على مثل ذلك.

أمّا مجتمعنا الحديث فإنّ ساحته الصّاخبة هذه الأيّام ينحسر عنها مدّ التّوادّ والتّراحم والألفة بشكل ملاحظ فالمسؤول يخاطب مستخدَميه (بفتح الدّال) بلهجة السّجّان وبنفس اللّهجة يخاطب المواطنين من ذوي الحاجات كما يخاطب بنيه في البيت بالطّريقة ذاتها وكلّ هؤلاء يخاطبونه بلهجة جافّة تفتقر إلى الأدب كأنّما فرضت عليهم طاعة أوامره رغما عنهم.

هذا وإنّ الأمر يكاد يشمل جميع حقول العمل في القطاعات المصنّفة وغير المصنّفة وحتّى ساحات المؤسّسات ذات الاتّصال المباشر بهموم المواطن من تعليم وطبّ وشرطة.

ولو أنّ الأمر اقتصر على التّعامل فيما بين المواطنين المحلّيّين لَهان الخطب ولكنّه تعدّى ذلك إلى التّعامل مع الإخوة الأجانب. ألا تدري أنّ واجهة البلد، مطار العاصمة، عندما يصل إليه الزّائر ويحطّ في رمضاء ساحته يُهْرَع إليه الجمارك وعلى وجوههم شُحوبة الصّحراء الكبرى مُكْفَهِرّي الوجوه فيخاطبونه وكأنّهم سيحملونه إلى السّجن فورا.

إنّ الأسباب الكامنة وراء هذا الأسلوب الحيوانيّ في نظرنا كالتّالي:

1- تقفّي آثار المستعمر وأذياله في معاملة المواطنين المحلّيّين إذ إنّ أولئك كانوا هم نموذج التّحضّر عند العامّة.

2- عدم التّعوُّد على الخضوع للنّظام أيّا كان من طرف المواطنين وذلك لقرب العهد بالبداوة.

3- ضعف الوازع الدّينيّ فصِلَة الرّحم وطلب الصّفح والمغفرة من الإخوان ورجاء الدّعاء وغير ذلك من مظاهر التّواصل في إطار التّقرّب إلى الله خَفَت صوتُه.

4- اختلاط مفهوم المجاملة بمفهوم التّملّق في أذهان العامّة.

هذه إذاً بعض الأسباب الكامنة وراء الظّاهرة المذكورة أمّا مظاهرها فهي أكثر من أن تعدّد بشكل تفصيليّ كما أنّها أوضح من أن تُذكَر ففي الشّارع إذا أراد الواحد مثلا أن يستفسر عن الوقت يلتفت إلى أخيه قائلا بدون سلام أو عبارة مجاملة (هِيه أنت الوقت شُنُه؟) وفي الباص عندما يدخل يخاطب إخوته: «اتركوا لي مكانا (اكُحْزُوا)! وفي البيت لا يبدو الأمر أحسن ممّا هو عليه في الشّارع فالأطفال أبناء الشّارع منه تعلّموا أكثر ما عندهم والأمّ مصدر الحنان غالبا ما تصبح تمثّل دور الأب التّقليديّ في التّوجيه والقسوة لأنّ أكثر الآباء في مجتمعنا يتخلّصون من مسؤوليّتهم تجاه تربية أبنائهم بشكل أو بآخر. إنّ العلاقة بين الجميع من حيث المظهر العامّ تكاد تكون علاقة خصم بخصمه في ساحة التّقاضي.

طبعا لا نتّهم مجتمعنا الأبيّ بسوء النّيّة ولكنّ الدّاء يكمن في الممارسات الفعليّة الظّاهرة. هذه الممارسات الّتي يُخْشى أن تنغرس في سلوكنا فنؤسّس بنياننا الحضاريّ عليها مستقبلا ولعلّ من أخطر المظاهر المباشرة السّلبيّة على مصالح الفرد في هذا الصّدد أنّ بعض الوجوه المعروفة في الآونة الأخيرة عندما تقدّمت للتّرشّح لتحمل مسؤوليّة تمثيل بعض المواطنين وقعت في حرج بالغ بسبب تصنُّعها لسلوك لم تتعوَّده من قبل في مخاطبة جمهورها فأسلوب الدّعاية يتطلّب بدون شكّ العلم بأبجديات الدّبلوماسيّة لكنّ الاعتبارات التّقليديّة بحمد الله ما زال يُعوَّل عليها إلى حدّ بعيد...

في نهاية هذا المقال لا أجد مندوحة عن أن أطالب عزيزي المواطن أيّا كان موقعه من خارطة النّشاط التّنمويّ الوطنيّ أن يميل إلى اللّين والطّيبة في الأسلوب الخطابيّ وأن يكبح جماح الأسلوب الجلف النّابي الّذي ربّما يكون قد تعوّد عليه بسبب حرارة الطّقس ولا أعتقد أنّ المسألة تحتاج جهدا كبيرا ما دامت تتعلّق بالخطاب الكلاميّ فحسب فالكلمة الطّيّبة أقرب إلى النّفوس وأبعث على الألفة.

الشّعب، 1992

الحرّيّة مادّة ثمينة ولكن...

الرّاديوم مادّة ثمينة أغلى من الذّهب ذات إشعاعات وهّاجة تُسْتَخدَم في علاج بعض الأمراض المستعصِية الدّواء مثل السّرطان لكنّها قد تصبح ضارّة سامّة مخوِّفة إذا لم يحسن استعمالها بل إنَ إشعاعاتها القاتلة قد تسبّب السّرطان نفسه فهي إذاً سلاح ذو حدَّيْن كالحرّيّة تماما.

الحرّيّة هدف مطلوب وأمل عزيز يحلم به كلّ أحد وللمراهقين ولع شديد به. ومع ذلك فالحرّيّة إذا بذلت إلى أحدنا هدّيّة غير مشفوعة ببرنامج عمل ذي أهداف معيّنة ستكون عبئا ثقيلا ولو توفّرت كلّ أسباب الرّفاه سوف يضرب يمينا وشمالا ويستحوذ عليه النّهم إلى الملذّات فلا يدع شيئا يستهويه إلاّ أخذ منه أكثر من حاجته ثمّ لا يلبث أن يعروه الشّبع والملل فيعاوده الضّجر ويبدأ في البحث عن مخرج من هذا الجوّ الرّتيب. قد يبقى في نفس الاتّجاه ولكنّه يرتمي في أحضان الجريمة والشّذوذ وقد يلجأ في نهاية المطاف إلى الصّومعة والتّزهّد والحرّيّة فضلا عن ذلك لن تكون أبدا مطلقة إنّها نسبيّة مقيّدة بالإمكانيات وحرّيّات الآخرين أوّلا وبالقوانين والنّظم والشّرائع ثانيا.

وللحرّيّة ضروب معلومة منها حرّيّة الرّأي وحرّيّة العمل والتّصرّف ولكلّ فرد قسطه منها حسب مستواه ومزاجه وطبيعة نشاطه العمليّ.

وإذا كانت الحرّيّة قد تكون مضرّة أحيانا إذا ما تجاوزت الحدّ فإنّها لكي يكبح جماحها بجرعة تخدير غير مضرّة يجب ربطها بشيء اسمه الالتزام.

والالتزام كما هو معروف غير الإلزام. إنّه تعهّد شخصيّ يتحمّل المعنيّ بموجبه مسؤوليّة معيّنة عن قصد وبمحض إرادة واختيار ويكون الدّافع الأساسيّ له هو الحصول على ضمانات هو في حاجة إليها مقابل خدمات مخصوصة كالمواطن في الدّولة عليه واجبات وله حقوق لكنّ ثنائية الحقّ والواجب تقتضي أن تكون ثمّة عدالة بين الاثنين فلا تبطل الحقوق ولا تضيع الواجبات وتلك مسؤوليّة جهاز العدالة الموقّر من أعلى سلطة فيه إلى أطرافه المتفرّقة في الممثّليات الدّاخليّة.

إنّ القائمين على العدالة في بلادنا لا يراعون في تصرّفاتهم الموازنة بين طرفي المعادلة المذكورين بل إنّ الواحد قد يحصل على الكثير من "التّسهيلات والخدمات" وهو لم يبذل نقيرا في خدمة الصّالح العامّ. بل هو كَلٌّ على مولاه في حين قد يمنع من حقّه من كدّ وجدّ وبذل قصارى جهده في القيام بمسؤوليّته على أحسن وجه ممّا قد يسبّب بعض ردود الأفعال الّتي لا تحمد.

إنّ ترك القوانين في الأسفار مهملة والتّعويل على جهل العامّة بما لها وما عليها ينبغي أن يوضع له حدّ فليس كلّ من منح مسؤوليّة بالتّدخّلات والوساطات حريّ بأن يوضع له الحبل على الغارب ليتصرّف في حقوق المواطنين كيف شاء خاصّة في هذه الفترة العصيبة من تاريخنا الحديث فأيّة حرّيّة هذه الّتي تضع شريعة الغاب بين أيدي الانتهازيّين في السّنوات العجاف ليملؤوها علينا إبلا وبقرا وناطحات سحب وعربات لا يُشَقّ لها غبار من غير سابق إنذار؟

إنّهم أحرار في أن يكون لهم كلّ ذلك ولكنّهم ليسوا أحرارا في أن يأخذوا ما في بيت مال المسلمين لحسابهم فرحِم الله عمر بن عبد العزيز، رحم الله عمر...

الشّعب، 1992/08/26

يَخْشَى أن يَحْتَرِق!

عرفتُه كريم المحتِد لا تكاد تنسبه لأبيه أو جدّه حتّى تنطلق كلمات الإعجاب والتّكريم من أفواه السّامعين. جادّ القسمات، لا يراه أحد إلاّ احترمه، تبدو عليه علامات الثّقة والاعتزاز بالأرومة. كان عهدي به أيّام الدّراسة. ليس بالمتفوّق المشار إليه بالخنصر ولا بالغبيّ المنسيّ. قيل لي إنّه عندما جاء الامتحان الكبير، على حدّ تعبير زملائه، حاول الغشّ فانتُهِر وعاده أحد أقاربه ليطمئنّ عليه في ساحة الامتحان فزُجِر ولَمّا لم يظهر اسمه في النّاجحين خرج هائما على وجهه إلى أن اتّصل بأحد أقاربه المهاجرين فنال حظوة عنده وساعده على الالتحاق بإحدى الجامعات فما لبث أن طلع علينا جميل الطّلعة، أنيق المظهر، يحمل أكبر الكرّاسات وزنا ومعنى، ذات الخاتمين الوهّاجين في الطّرفين.

استقبَلَتْه وسائل الإعلام استقبالا حارّا يليق بمقامه. أكثرت من ترديد اسمه على طريقة التّرويج "لسهرة الشّهر"[1].

سمعتُه ذات يوم يقول بأسلوبه التّقريريّ المعهود: "منذ أن قدِمت إلى هذه الأرض لم أقرأ صحيفة واحدة ممّا يصدر ولم أزُر مكتبة ولا حضرت محاضرة أو ندوة إلاّ تلك الّتي ألقيتُ ضمنها كلمتي!". ولما سئل عن السّبب ردّ بنفس الأسلوب: "لأنّ المكتبات هنا فقيرة هزيلة والّذين يكتبون لا يتوفّرون على أبسط حدّ من الوعي أو الثّقافة: أسلوب سقيم وتراكيب هشّة ومواضيع تافهة ذلك أنّ أرباب الثّقافة على قلّتهم في هذا البلد يعزُفون بأفكارهم عن أن توضع على قارعة الطّريق فيأخذها كلّ من هبّ ودبّ، يحتكرون كلمتهم فلا يرضون لها الابتذال.

ثمّ أضاف: "أمّا المحاضرات والنّدوات فإنّ من يُدْعَوْنَ لها عادة لا أطمئنّ إلى خبرتهم لأنّهم في الغالب لم يتلقّوا دراسة عصريّة في الخارج وكثير منهم يُستدعى ليتكلّم في مواضيع لا تدخل ضمن اختصاصه." هكذا علّل الزّميل الكريم مقاطعته للنّشاطات الثّقافيّة الّتي ربّما استهوت غيره وإن كان صحبه كثرا. ولا شكّ أنّ حديثه هذا رغم وضوحه قد يعكس أكثر ممّا ينطق به صريحا فهو لم يَرْتَدْ

[1] سهرة الشّهر: برنامج تلفزيونيّ كان يُبَثّ مباشرة من دار الشّباب كلّ شهر يشتمل على فعّاليّات فنّيّة وأدبيّة وتبقى التّلفزة تروّج له طيلة ما بين حلقاته.

مكتبة مسبقا ويحكمُ على أرباب الثّقافة ربّما انطلاقا من تصوّره الشّخصيّ بأنّهم يحتكرون ثقافتهم استبعادا لتهمة الكسل والتّفريط في واجب الإصلاح الاجتماعيّ كما يؤكّد ضمن حكمه الأخير فكرة الانبهار بالآخر الّتي هي من لوازم تفكير جيله.

كلّها أطباق مرّت بذاكرتي وأنا أنصت لحديث زميلي الّذي أصبحت أكنّ له من الاحترام الشّيء الكثير ودون أن أستوقفه عند بعض التّناقض الجليّ في كلامه قلت بلهجة التّلميذ: "يا سيّدي لا ينبغي لكم معشر المثقّفين الكبار والمجرّبين الرّوّاد أن تحتكروا عنّا أفكاركم النّيّرة فهلاّ أفشيتموها وحبّبتم إلينا منابر العلم والإصلاح وصقلتم عن عقولنا الغضّة أدْران التّخلّف والتّبعيّة والتّقليد فمنكم الأسوة الحسنة إن عزّت الأسوة وإذا لم يكن منكم الأساة لما نعاني فأين هم الأساة؟ فقديما قيل: "الرّائد لا يكذب أهله."

فما كان منه إلاّ أن قال بلهجة غير المكترث: "هذا شعب فاسد لا يُرجى له الإصلاح سلوكه غير حضريّ ووعيه يتدنّى عاما بعد عام!".

أجبته: "بدون شكّ ولكن على مَن تقع المسؤوليّة؟ هي طبعا على الجميع ولكن ماذا فعلتم بحظّكم منها؟ هذا هو السّؤال!"

ردّ عليّ بسخريّة ونبرة حادّة: "غيرنا أكل حظّه منها أمّا نحن فليس بيدنا شيء. أتريدون منّا أن نلِج كلّ الأماكن ونعتلي كلّ المنابر في بلد كهذا؟ إنّني شخصيّا أعزف عن ذلك. لي همومي الخاصّة ومشاغلي الشّخصيّة. مثل تلك النّشاطات لا يليق بي منها إلاّ ما أتصدّر فيه المجلس وأظهر فيه بمظهر مُرْضٍ يُرْضي "جماعتي" ويقرّبُني إلى "القوم" زُلفى أمّا غير ذلك فإنّي أخشى أن أحترق...أخاف أن تُسْرَق معارفي وأحترق! لكن لا عليكم اخدُموا أنتم هذا الّذي تدعونه الوطن...اخدموه وضحُّوا من أجله أيّها "المضحُّونَ من أجل السّيادة" وسوف نرى!"

الشّعب، الثّلاثاء 7 يوليو 1992

الممنوع من الصّرف

مرّت سنوات السّبعينات بأيّامها السّود وأيّامها البيض وذلك الجناح المهيض يتشكّل في النّاحية الجنوبيّة الغربيّة من المدينة من "حلّة شروطيّة" و"حلّة ابراگ" إلى "كبّة الخنازير" ف"كبّة مندز" آخر المحطّات.

غلت المدينة وفارت وتمدّدت شرقا وجنوبا فعمّرت الصّحارى المرملة باللّبن والمدر والخيام والإبل وذلك الجناح قابع في مكانه لا ينقص إلاّ ليزداد بأضعاف حتّى عادت الأكواخ بعضها يركب رقاب بعض ومتى هبّ المنادي ينادي بأنّ "الكاتبين" حَلُّوا فحدّث ولا حرج.

تتوافد الأسر من الجهات السّتّ للعاصمة ويُهْرَع أهل الرّيف والبُداةُ من كلّ حدب وصوب فتنشطر كلّ أسرة إلى أسرتين فأكثر ويندسّون خفية بمساعدة أقاربهم من السّابقين الأوّلين بين الأكواخ القديمة زاعمين أنّهم من قبلِ ميلاد آدم قاطنون في ذلك المكان وأنّهم لن يبرحوه حتّى يُمنحوا وثيقة الأرض وفي هذه الفترة تنتشر الشّائعات بشكل مذهل وينوء الجناح المهيض بحمله من الوافدين فتغلو الأسعار ويرتفع معدّل الإنفاق والسّكّان الأصليّون بطبيعة الحال هم الّذين يدفعون الثّمن فمن تجهيز الأوكار الجديدة بالفرش والأدوات إلى ضيافة كلّ من هبّ ودبّ من الوافدين وضيوفهم تشجّعهم على ذلك الأريحيّة البدويّة المفرطة وتقارب المنازل وهشاشتها ذلك أنّ هذا التّقارب قد عمل عند أهل "الكبّة" على نوع من الاشتراكيّة في كلّ شيء خاصّة أنّ الدّخول غير محدّدة بل تعاني من الشّحّ المزمن عادة. فمتى أرادت الأسرة مثلا إعداد شاي قد تبعث إلى أختها الّتي بجانبها أن تبعث لها بعض لوازمه كعلبة الغاز أو السّكّر على أن تتوجّه لها الأخرى بطلب مماثل متى استدعى الأمر ذلك ومن ثَمَّ فإنّ هذا النّمط من التّعايش قد شاع هناك وكثيرا ما تنجم عنه مشادات عنيفة، وحتّى قطيعة في بعض الأحيان، لكنّ الأمر يختلف بالنّسبة للضّيوف؛ لأنّ مجتمعنا ما زال يعتبر إكرام الضّيف واجبا لا مساومة فيه. فقد تكرم الأسرة ضيوفها في حين يبقى أطفالها يتضوّرون جوعا اجتنابا للّوم وتوقّيا للذّم.

وسواء أكان سكّان "الكبّة" الأصليّون ذوي سماحة أو بخل فإنّهم يعيشون معيشة ضنكا منذ أكثر من عقد من الزّمن لو وجدوا مندوحة عنها لهجروها ولكنّ ضعف الإمكانيات يمنعهم من أن يحلّوا مكانا قصيّا عن قلب المدينة الّذي يشكّل مقرّ مستخدِميهم ومصدر كسبهم.

إنّك لو زرت تلك الأوكار المتهرّئة هذه الأيّام: رائحة البؤس تفوح منها والأطفال الحفاة العراة الكسيحون يتسكّعون في الأزقّة بين أكوام القمامة لشعرت بالألم يعتصر قلبك والإشفاق يستولي عليك. لو وقفت عند محطّة الباص وقت الأصيل وأجلت بصرك في المارّة للاحظت أنّ الموارد شحّيحة إذا كانت الأماكن هشّة: شيوخ شعث غُبْر لم يُبْقِ منهم الدّهر إلاّ هياكل سُمْرا في أطمار بالية يَقْضُون بياض يومهم يكدحون فيعودون بدريهمات قليلة لأسرة كثيرة الأطفال.نساء بأجسام مترهّلة متثاقلات في سيرهنّ يحملن أقمشة بيضاء وخيوطا مطّاطيّة (مادّة للتّطريز) وبعض الموادّ الغذائيّة الرّخيصة في خنشات للبيع في المنزل وأيّ منزل؟

نعم إنّ شحّ الموارد أمر طبيعيّ والمجتمع في المدينة مجتمع طبقيّ لكن ما يؤسَف له حقّا بل إنّه خارج على سنّة الحياة في التّطوّر هو أن تظلّ طبقة محاصرة محجوزة عن أن تتطوّر تزداد يوما بعد يوم ولكنّها لا تجد طريقا لأن يرتقي بعضها عن بعض طبقيّا حتّى مضى عليها أكثر من عقد من الزّمن والسّبب البديهيّ الواضح للعيان هو حرمانها من رقعة أرضيّة تعيش عليها حياة مؤطّرة تأطيرا مدنيّا ذا مرافق مقبولة.

وإنّه لمن العجب أن يعاني الإنسان في بلد كبلادنا من انعدام قطعة أرضيّة يسكنها في حين أنّ مساحة البلاد إذا ما قُسّمت على السّكّان استطاع كلّ واحد أن يحصل على قرابة كيلومتر منها لحسابه خاصّة أنّ الأمر هنا لا يتعلّق إلاّ بصحراء مجدبة فحسب بل إنّ المرافق الضّروريّة لن تكلّف كثيرا على كلّ حال فبِسير الوعي المدنيّ في خطّ تصاعديّ لدى السّكّان سيشاركون كلّ حسب جهده في إعداد تلك المرافق ولو بالتّدرّج.

بيد أنّ المشكلة الأساسيّة تكمن في تلك الهجرة الموسميّة الّتي تمّت الإشارة لها في بداية المقال. تلك الهجرة الّتي جعلت السّلطات الإداريّة عاجزة أمام هذه الوضعيّة ممّا جعلها تتساهل في البحث عن وضع حدّ لظاهرة "الكبّة" إذ إنّ الحابل اختلط بالنّابل ولا أمل في تمييز القديم من الجديد والفقير

من الغنيّ والتدخّلات تقلب الموازين ومتى خُلَّ بالقانون لِصالح هذا لزم أن يُخَلَّ به لصالح ذلك والاعتبارات التّقليديّة أقوى من القانون والعاصمة لا تستطيع أن تستوعب كلّ السّكّان جميعا.

وعليه فإنّ عقليّة المجتمع المتولّد من عهود البداوة وأيّام الجفاف والإسعافات المجّانية و"لكزير" و"التّبتيب" تنضاف إلى عيوب الإدارة في بلدنا وبين الأمرين علاقة جدليّة هي ما عمل على تشكيل هذه الظّاهرة بشكلها المزري الّذي هي عليه الآن.

فهل تفلح السّلطات الإداريّة هذه المرّة في القضاء على ظاهرة حيّ الانتظار وبالتّالي إنقاذ جزء كبير من جيلنا الصّاعد من درك التّخلّف والجريمة بمختلف أنواعها؟ هل يحظى الأقدم والأحوج بالرّقعة القريبة في حين لا يمنع الآخرون؟ هل يكون الكاتبون كراما هذه المرّة فينصرف الممنوع من الصّرف وندرك أنّ المرونة الّتي ذكرها ابن مالك صحيحة في هذا الصّدد (ولِاضْطِرارٍ وتناسُبٍ صُرِّف ذو المنْع) والمصروف قد لا ينصرف؟

ذلك ما ينتظره الجميع بفارغ الصّبر فعسى أن تكون المرونة والصّرامة والجدّيّة شعار مَن يتصدَّون لهذا الأمر الجلل شعارا تصدقه الممارسة.

الشّعب، 1992/07/30

دوران حول نقاط العبور

كثيرة هي نقاط العبور ضيّقة حرجة تتلاطم الأمواج من حولها متحدّية سفينة العبور الصّامدة الرّجراجة ممّا يشكّل وسطا جدّ ملائم لصولاتك وجولاتك الموسميّة لتهرف بما لا تعرف وتخلط الأوراق كما يحلو لك وترتع حول الحِمى أنّى شئتَ. إنّها الجبروت والجرأة المتأصّلة في سلالتك أيّها القلم المغوار.

إنّي لأحسّ في نبضك تحفّزا ونزوعا إلى تخريق الحواجز واجتياح ثوابت كانت آمنة مطمئنّة ومدّ جسور على نقاط العبور وكأنّها بُسُط فولاذيّة السّبائك فكم أنت طموح خصب الخيال!

بالأمس عدت مثقل المخيّلة بالمشاهدات المثيرة ينوء كاهلك بالهموم فطفقت تهذي هذيان المحموم وما أراك اليوم إلاّ وقد خبّأت سرّا وجئت بأمر ولعلّ لحظة البوح أزفت فاستقم حتّى لا يكون لسانك جارحا فشفافيّة المزاج سمة بارزة فيمن تتعامل معهم.

هكذا مجّ لعابه وأخذ يهذي على طريقة المنوَّم تنويما مغناطيسيّا وما لبث أن استقلّ درب الوصف والتّوجيه، وللحديث شجون، عرّجت به في معارج شتّى ولعلّه لم يكن يؤمن أيّام صحوه بالحدود ما بين المعارف الإنسانيّة طالما أنّها ذات لون واحد وطعم واحد عندما تجري على لسانه فإذا به وكأنّه خبير اقتصاديّ أو عالم اجتماعيّ يستظهر بعض معلوماته السّابقة فذهب إلى أنّ التّفكير في إنجاز أيّ مشروع يقتضي البحث في مدى التّناسب بين التّكلفة والمردوديّة سواء كان المشروع ذا طابع اقتصاديّ أو سياسيّ أو اجتماعيّ وزعم أنّ للتّكلفة شقّيْن عادة أحدهما يتّصل بالكادر البشريّ والثّاني يتعلّق بالإطار المادّيّ وكلاهما لا غنى عنه لدفع عمليّة النّموّ والمردوديّة ذات جوانب مختلفة قد يجري التّركيز على أحدها انطلاقا من طبيعة المشروع وخصوصيّته إلاّ أنّها غالبا تصبّ في بوتقة دفع عمليّة النّموّ المتكامل للبلد وأردف على طريقة التّداعي الحرّ والعبرة في التّكلفة ليست بكثرة العناصر والهيئات والأطر وإنّما هي بالجدوائيّة فالكيف أولى من الكمّ وكما أنّ كثرة العدد (النّموّ الدّيمغرافيّ) في المجتمعات المتقدّمة عامل دفع إلى الأمام بينما هي في المجتمعات المتخلّفة عامل تخلّف وإعاقة إذ إنّ الأفراد في تلك ينتجون أكثر ممّا يستهلكون غالبا والعكس بالعكس والأمر ينطبق على الكادر البشريّ في أيّ حقل من حقول العمل والإطار الماديّ يتأثّر سلبا وإيجابا بذلك.

وأضاف وكأنّما أفاق قليلا وأخذ يعاوده صحوُه فهمَّ أن يربط الخيط بين الوعي واللاّوعي بملامسة الواقع: وعليه فإنّ تقليد الآخرين في كثرة الهيئات والهياكل المؤسّساتيّة فيه حيف وتجاهل لمتطلّبات ظرفنا الزّمانيّ وخصوصيّة بلدنا. إنّ هذا الانتشار الأفقيّ الّذي تعاني منه المؤسّسات العموميّة لدينا هو السّبب المباشر في ضمورها وهزالها إذ إنّ كلّ مؤسّسة من الإدارات و"المصالح" والأقسام والفروع والأغصان ما لا يقع تحت حصر ممّا تنوء به الميزانيّة المخصّصة لها في غير طائل.

ولئن كان في الأمر حدّ من استفحال ظاهرة البطالة بشكل ما فإنّ فيه كذلك دفعا للتّفاوت الطّبقيّ بشكل مذهل ذلك أنّ كثرة المسؤولين تركّز الاعتماد الماليّ في أيدي هذه المجموعة وحدها ولو أنّها كانت ذات مردوديّة عمليّة إنتاجيّة لهان الأمر ولكنّ جمعا غفيرا منها لا يدري من أين تؤكل الكتف ولا يدخل مكتبه إلاّ ليعود بغنيمة في حقيبته الشّخصيّة. ومهما يكن من أمر فإنّ كثرة الهيئات وانتشارها يجب قبل كلّ شيء أن يتناسب مع الكمّ العدديّ للشّعب ومتطلّبات النّموّ المتكامل وأن يراعي الجدوائيّة النّوعيّة للهيئة والمسير معا قبل أن يراعي تلبية حاجة فلان أو فلان من ذوي الضّغط الّذي يلحّ على أن تنشأ هيئة لحسابه حتّى يتبوّأ المنصب الّذي يرضاه. فهل يمكن أن تستوعب المسؤوليّات الكبرى كلّ الوجهاء و"أبناء الخيام الكبيرة" ممّن لا حظَّ لهم من المؤهّلات والكفاءات عادة؟

إنّ خلق أطر وهياكل على الطّريقة الحديثة ليس هدفا في حدّ ذاته لذلك فإنّنا نجد بعض الدّول المتقدّمة وحتّى النّامية لا تتوفّر على بعض المؤسّسات ذات الطّابع الاجتماعيّ أو السّياسيّ الموجود لدى مثيلاتها المشابهات لها في طبيعة النّظام وذلك مراعاة لمقتضيات المقام وتوخّيا لتقليص أوجه الاستهلاك فيما لا طائل من ورائه.

وعليه فإنّ تضخّم الهياكل المؤسّساتيّة وانتشارها يدعو إلى تشتّت الجهود وتداخل المهامّ والدّوران في حلقة مفرغة حول نقاط العبور حسب ما عاد به هذا القلم من جولته الأخيرة في أروقة مؤسّساتنا العموميّة فأفصح به وهو لا يدري في وقفته التّأمّليّة على منتصف الطّريق بين الحلم والواقع فما رأي عزيزي المواطن؟

الشّعب، 1992/05/12

لماذا التّعتيم؟!

أشياء كثيرة تُرْبِك مَن يعيش في هذا المجتمع أيّامنا هذه حوادث مريبة وتصرّفات عجيبة وشائعات لا تعرف حدودا والخيط الأبيض لا يكاد يتميّز من الخيط الأسود.

تأكّد حدوث جرائم بما لا يدع مجالا للشّكّ لكن من الفاعل؟ لا ندري لما عزّ الجواب على السّؤال بشكل مقنِع؟ هُرِعْنا إلى الصّحافة الحرّة علّها تحُلّ اللّغز لكنّنا لم نجد لديها إلاّ ترديد الشّائعات كما تردّدها العامّة. عناوين مغرية بالكشف عن الأسرار واستطلاعات كثيرة ولكنّها لا تضيف شيئا. انتظرنا انتهاء التّحقيق فانتهى التّحقيق ولكن ليس إلى حقيقة مدركة.

سُرِق المال العموميّ في بعض القطاعات وتمّت المتاجرة بالمخدّرات في أسواقنا السّرّيّة. قُتِلت النّفس الّتي حرّم الله. قيل إنّ الزّوج قُتِل وإنّ الأمّ قُتِلت. جرت عمليات اختطاف وقتل واسعة النّطاق لكنّ الأفعال كلّها ظلّت مبنيّة للمجهول فمتى ينتهي هذا التّعتيم؟ متى يُكْشَف النّقاب عن اللّغز؟

هل يبقى العامّة مِمَّن يحبّون أن تشيع الفاحشة يتحمّسون لإثبات الشّائعة بأبشع ما تكون؟ بعضهم يوجّهها في اتّجاه آخر تحقيقا لحاجة في نفس يعقوب والموضوعيّة غائبة بطبيعة الحال عن هذه الأجواء المسمومة؟

إنّ مثل هذه الجرائم الغريبة على مجتمعنا ينبغي ألا تظلّ رهن التّعتيم والصّمت خاصّة ما انتهى منها إلى نتيجة مثبتة واضحة الأدلّة.

إنّ إلقاء الحبل على الغارب لمروّجي الشّائعات في هذا المجال من شأنه أن يعمل على بلبلة القِيَم وقتل الضّمير الخلقيّ لدى النّاشئة فما داموا يدركون جيّدا أنّهم لو فعلوا كلّ جريمة لكانت شائعة ككلّ الشّائعات بعض يُصدّق وبعض يُكذَب فإنّ الأمر سيهون عليهم طبعا ينضاف إلى ذلك أنّ هذا ينفي مصداقيّة الجهة المعنيّة بالتّحقيق وإصدار الأحكام فما دامت أحكامها سرّيّة وغير واضحة البراهين فقد يكون فيها جور وإهمال. هذا ما سيتصوّره العامّة. مع أنّ ثمّة بريئون قد يُرْمَوْنَ بمثل هذا من طرف أعدائهم فلا يجدون سبيلا لتبرئة ساحتهم بشكل مقنع طالما أن ليس كلّ من يضبط مجرما

يعاقب فقد تتدخّل عيوب إدارتنا التّقليديّة في المسألة فلا تكون النّتيجة من نوع السّبب وأعني هنا بعيوب إدارتنا الوساطة بكلّ أنواعها ودوافعها.

إنّ قتل النّفس والمتاجرة بالمخدّرات وسرقة الأموال العموميّة ليست جرائم بسيطة إن كان في قاموس الجريمة بسيط بل إنّ فعلها أخطر وأبشع من أن يُرْمى به بريء أو يُسْكَت عن قائم به وليتميّز الحقّ من الباطل ويذهب الزّبد جفاء لا بدّ من وضع الاحتياطات اللاّزمة ليعود المجرمون الحقيقيّون معروفين تلحق بهم العقوبات المادّيّة والمعنويّة المستحقّة ويبقى غيرهم سليم العرض أبيض السّيرة فأين أنت يا جهاز عدالتنا الموقّر يا صاحب الحصانة والأبّهة؟ فلم لا تكون الواقي والرّادع عندما ضعف الوازع الدّينيّ الّذي ظلّ يحصّن مجتمعنا من الجريمة أيّام لم يكن ثمّة حكم مركزيّ ولا جهاز لحفظ الأمن والعدل؟

إنّه يبدو من اللاّزم في مجتمع كمجتمعنا أن تحاط مثل هذه الجرائم الشّنعاء بجوّ من الاستنكار الرّسميّ والتّشهير بالمجرمين حتّى يكون للرّادع المعنويّ دوره في العمليّة خاصّة أنّ العقوبات في بلدنا مخفّفة إلى حدّ بعيد عكس بعض الدّول الّتي تجعل مثلا عقوبة المتاجرة بالمخدّرات تصل إلى الإعدام أحيانا.

أضف إلى ذلك أنّ طول فترة التّحقيق زمنيّا في العادة لا يفيد كثيرا بل إنّه يغذّي الشّائعات من جهة ويعمل على تناسي الجهات المعنية للقضيّة وإهمالها بدون حسم. ألا يكون التّكثيف من التّحقيق في فترة أقصر أكثر جدوائيّة في الأمر؟ هذا ما نتصوّره فعسى أن تختفي الجريمة من هذه الأرض الزّكيّة وينعم جهازنا الأمنيّ والقضائيّ بالراحة والعمل الدّؤوب المنتج والوقاية خير من العلاج كما يقولون.

الشّعب، الثّلاثاء 18 أغسطس 1992

الاستفادة من المواسم

لَبَيْتٌ تَخْفِقُ الأَرْوَاحُ فِيه *** أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مُنِيفِ

هكذا كانت الفتاة الكلبيّة ميسون بنت بَحْدَل تتغنّى بشوقها إلى مضارب خيام ذويها بِنَجْد وتعلن تعلّقها بالبدو إلى حدّ يجعلها تودّ لو باعت قصر خلافة بني أميّة في دمشق بخيمة في مهبّ الرّيح من صحراء نجد.

إنّ مَن دفعها إلى تمنّي حصول هذه الصّفقة الغَبَشانيّة هو إحساسها بالغربة عن ذويها وأترابها وهي البدويّة الأصيلة حتّى ارتبط عندها القصر بفراق ذويها ومقتت جوّ المدينة وصخبها وحنّت إلى نقاء جوّ البادية الّذي ألفته وألفت بساطته أو كما قال معاوية:

تَمَنَّتْ أَحَادِيثَ الرُّعاةِ وخَيْمَةً *** بِنَجْدٍ فَلَمْ يُقَدَّرْ لَهَا مَا تَمَنَّتْ

ولا شكّ أنّ ميسون كانت صادقة مع ذاتها مترجمة لأحاسيسها في تلك الأبيات فهي تدرك جيّدا أنّها ظفرت بمنزلة تُحْسَدُ عليها ولكنّها تحسّ إحساسا عميقا بأنّها ليست سعيدة في هذا المكان وأنّ بقاءها في البدو أضمن لسعادتها وارتياحها. أمّا ميسونات وميسونون في بلدنا هذه الأيّام، وهم كثيرون، فإنّهم شديدو التّعلّق بالاثنين معا، الخيمة والقصر، وهو تعلّق يبدو خاليا من الرّومانسيّة عكس الأوّل وذلك لما يظهر فيه من شغف بأسباب الرّفاه والإسراف في الإنفاق استجابة لذلك حتّى ولو أدّى الأمر إلى تعطيل مصالح كانت جارية المنافع على مستوى أعمّ.

فبينما يصل التّكالب على أراضي البناء أوُجَّهُ وتُستنزَف الطّاقات في تشييد المباني الضّخمة هنا وهناك في النّهضة العمرانيّة الهشّة الأخيرة إذا بأغلب هذه المباني تصبح مهجورة بسبب غياب الأهالي رغبة في الانتجاع والرّاحة والغذاء الجيّد حيث صار من اللاّزم لمن أُوتِي من الثّراء قدرا أن يكون له ذود من الإبل في البادية ولئن عزّ توفُّره عليه لا بدّ أن يبحث عن مكان يحصل فيه على كمّيّة من اللّبن بالشّراء وتبلغ هذه الرّغبة أوُجَّها عادة بحلول فصل الخريف عندنا وما إخال الرّقم القياسيّ إلاّ قد سجّل هذه السّنة في عموم تلك الظّاهرة فمن يتجوّل في المكاتب في فصل الخريف لهذه السّنة

يلاحظ غياب غالبيّة الموظَّفين إمّا في إجازاتهم السّنويّة الّتي كانوا ينتظرون بها فصل الخريف هذا أو في إجازات إضافيّة حرصوا على أخذها رغبة في البقاء أكثر في البدو ولو أدّى ذلك إلى تعطيل أعمال كثيرة. أمّا المنازل في الأحياء الرّاقية خاصّة فأغلبها مهجور جزئيّا أو كلّيّا ويظهر الأمر جليّا في المساءات أكثر إذ تُمْتَطَى السّيّارات إلى مضارب البدو بعيدا.

ومن يأتي إلى البادية سوف يلاحظ وجود السّيّارات بمختلف أحجامها وعيّناتها غادية رائحة بين أماكن تواجد الإبل وقطعان البقر باحثة هنا وهناك عن محلّ لبيع اللّبن حتّى لتجد الأسرة بجميع أفرادها ممتطية سيّارة تطوف بين الأحياء البدويّة تسائل عن موطن يمكن أن يُحْصَل فيه على بضع ليترات من اللّبن ولو بأغلى الأثمان وكم من مرّة تشاهَد سيّارات تحمل العلامات الرّسميّة من عابرات الصّحراء أو غيرها وهي تدكّ متون الأعشاب والشّجيرات المنتعشة أو تنفث دخّانها في تلك الأجواء الصّافية بحثا عن شربة لبن أو وجبة لحم مشويّ على الطّريقة التّقليديّة أو كؤوس شاي مُعَدٍّ على نفس النّمط أيضا.

إنّ أهل البدو قد أصبحوا يدركون جيّدا مدى رغبة هؤلاء في الحصول على اللّبن فجعلوا يبالغون في رفع أسعاره إلى أرقام خياليّة فقد قيل إنّ بعضهم أصبح يبيع لبن النّاقة الواحدة بغضّ النّظر عن كمّيّته بمبلغ ألف أوقية لأصحاب السّيّارات المتوافدين عليهم كلّ ليلة.

طبعا من حقّ سكّان المدينة أن يستمتعوا بأجواء البادية وما تخبّئه من خيرات ومن حقّ البُداة وأصحاب رؤوس الأموال أن يستفيدوا من بضاعتهم في هذا الفصل المحبوب لكن هل يجوز لنا ونحن نعيش في مجتمع يُراد له أن يكون مدنيّا وفي ظلّ دولة القانون أن نعطّل نشاط جهازنا الإداريّ ونسخّر جميع الوسائل الّتي هي أمانة في أيدينا من أجل أن نظفر بسُوَيْعات راحة باهظة التّكاليف فأين أنت يا مصلحتنا العامّة؟ هل تذهبين ضحيّة الاستفادة من المواسم؟

الشّعب، الأحد 12 دجمبر 1993م

الهجرة إلى الحبيبة أمّ المدن!

يا لها من رقعة صغيرة استحالت مغناطيسيّا ينجذب إليها كلّ من ضاقت به الرّحاب المتّسعة من أرض الله أو ضاق بها حتّى ازدحم على أديمها القصّاد من كلّ حدب وصوب ففارت وتمدّدت سخطا وضيقا بمن على ظهرها فما كان منهم إلاّ أن امتاحوا من جوانبها المتمدّدة مرابض آوَوْا إليها. تركوا الرّبوع والمعاهد فما بَكَوْا ولا استبْكَوْا ولا ذكروا "الحبيبة والمنزل"...هجروا تلك المدن الّتي شيّدوها هنا وهناك أيّام كان يعزّ عليهم أن يبرحوا المكان الّذي درجوا به. أَلْهَتْهُمُ الرّقعة الصّغيرة عن الكلّ فعاد هواه موسميّا لا يكاد يُطْرَق إلاّ صيفا عندما تبلغ الرّقعة أُوُجَّ غلیانها و تأخذ الرّقاع النّائية زخرفها فتنشر السّاحات الخضراء ويعمّ الأفقَ الصّحوُ عند ذلك يخرج الجميع حتّى يترك أديم الأرض هشيما ورمادا ثمّ يعود إلى الرّقعة المحبوبة المباركة.

إنّها طبعا أمّ المدن مَعْلَمَة الرّقيّ في البلد لكنّ ذلك لا يستلزم سكنى المواطنين بها جميعا وتراكم قنوات التّنوير بها وحدها دون أيّ من المدن المنتشرة داخل البلاد فأين هي تلك العاصمة الّتي يتوفّر كلّ مواطن على منزل بها؟ وأين هي تلك المدينة الّتي تزدحم المرافق العامّة بها ازدحاما في حين أنّ غيرها لا يتوفّر إلاّ على أبسط المرافق وأقلّها عددا وعُدَّة. إنّها ليست مدينة أخرى أو عاصمة غير هذه الّتي شيّدوها بين بحر الرّمال وبحر المحيط في ذلك الشّاطئ الزّكيّ شكلها الهندسيّ غير معلوم إنّها قد تتراءى لي أحيانا في شكل نسر يتمدّد جناحاه جنوبا وشمالا ويقع رأسه إلى الجنوب الغربيّ ملتفتا إلى الشّرق قليلا ومن الملاحظ أنّ جناحي النّسر غير متكافئين ذلك أنّ النّسر عندما يُهِمُّ بالإقلاع يشدّه إلى أسفل جناحه الجنوبيّ المهيض ذلك الجناح الّذي نُتِفَ ريشه وتمزّقت أنسجته وذبل فلا هو حيّ ولا هو ميّت بل هو أشبه في انقباضه بالأشلِّ إلاّ أنّه متشنّج فيه حركة متواترة بطيئة هذا في حين يبدو الجناح الشّماليّ موفور الرّيش منتعشا فيه قوّة وجبروت وألوان مشعّة فكأنّما فيه شيء من ريش "الطّاووس" لُفَّ إلى جانب ريشه الأصليّ بشكل غير منسجم إلاّ أنّه لا يخلو على كلّ حال من جمال وأناقة وبين الجناحيْن هيكل يَرْبِطُ بينهما قويّ ولكنّ حالة عدم التّوازن المذكورة تشدّه إلى الأرض فلا يستطيع الصّعود.

هكذا دفعني الخيال إلى تصوّر مدينتي الحبيبة في شكل نسر غير متوازن الجناحين كما كانت مدينتي غير متوازنة مع بقيّة المدن في كمّها البشريّ ومرافقها العامّة.

رقعة صغيرة واحدة يركب بعض النّاس فيها رقاب بعض كأنّما هم في حِجّة محدودة الميقات زمانيّا ومكانيّا والسّبب الواضح هو أنّ أغلبيّة المرافق موجودة بها وحدها خاصّة المؤسّسات التّعليميّة العليا والمدارس المهنيّة والشّركات الّتي تستقبل أكثر اليد العاملة فَلِمَ لا توزّع هذه المؤسّسات على المدن الدّاخليّة؟ لِمَ لا تكون ثمَّة مدارس مهنيّة في عواصم الولايات ولو على مستوى التّكوين المتوسّط فحسب؟ هل أنّ التّجربة الّتي قِيمَ بها في هذا المضمار أثبتت فشلها على قِصَر عمرها وجزئيّتها؟

نعم إنّ ثمّة مؤسّساتٍ لا يمكن أن تبقى العاصمة غُفْلا منها كالجامعة مثلا فما دامت لا توجد إلاّ جامعة واحدة قليلة الأقسام فإنّه لا يمكن التّفكير في نقلها إلى الدّاخل. أمّا المعاهد العليا والمتوسّطة وخاصّة المتوسّطة فإنّه يبدو من الوارد جدّا توزيعها بشكل يراعي الكثافة السّكّانيّة ومستوى التّعليم في الولايات الدّاخليّة.

إنّ تزاحم قنوات التّوعية الاجتماعيّة في هذه الرّقعة يعود بكثير من السّلبيّات على المجتمع منها عدم استغلال ثروات الأرض الكثيرة، حَصْرُ أوجه النّشاط الاجتماعيّة في مجالات معيّنة، تدنِّي مستوى المعيشة، تدنّي مستوى التّعليم وفقدان فرص العمل، هذا طبعا بالإضافة إلى تشجيع الهجرة الأحاديّة أي الهجرة إلى العاصمة وكلّ هذا حدث بالفعل فعسى أن تتّخذ الجهات المعيّنة الإجراءات اللاّزمة حتّى تحدّ من استفحال الظّاهرة أكثر فأكثر ففي بلدنا لا يبدو هنالك مسوِّغ مقبول لظاهرة الكثافة والانحسار هذه.

الشّعب، الثّلاثاء 11 أغسطس 1992م

الأخلاق والشّريحة الموبوءة

ما من شكّ في أنّ ظاهرة الانحلال الأخلاقيّ بلغت أوْجَّها في الأعوام الأخيرة نتيجة لعوامل كثيرة متشابكة كلّها تصبّ في التّحوّل الاجتماعيّ الجذريّ الّذي عرفناه منذ عقد السّبعينيّات وما صاحب ذلك من انهيار الرّكائز الاقتصاديّة التّقليديّة واجتياح المدّ الأجنبيّ للبنية التّحتيّة والفوقيّة من مختلف الجهات وبشتّى أنواع الوسائل المغرية حتّى بلغ السّيل الزُّبى وعمّت البلية كلّ الثّوابت المعروفة أصلا فكان ما كان...

لقد استفحلت الظّاهرة وخلقت لنفسها أطرا وأوكارا في الخفاء رغم أنّ مجتمعنا ما كان له أن يتخلّص فجأة وبصورة كلّيّة من ميراث قرون كثيرة من الالتزام الأخلاقيّ الدّينيّ في الغالب الأعمّ فعوامل التّربية لن تذهب سدى على كلّ حال بَيْد أنّ الحاجة المادّية وفقدان المؤهّلات العلميّة من جهة واستمرار المدّ الأجنبيّ الجامح من جهة أخرى كان من شأنهما أنْ عَمِلاَ على تقليص مفعول الوازع الخُلُقيّ الأصيل ممّا يجعل الإسراع باستئصال الدّاء ضرورة أكثر إلحاحا لكن كيف السّبيل إلى ذلك؟

لعلّ تعدّد عوامل ظهور داء كهذا يستدعي علاجا مكثّفا يضع في الحسبان حجم المرض وأبعاده كاملة خاصّة إذا ما لوحِظ أنّه انتشر في أنحاء جسم المجتمع بسرعة مذهلة فلم يعد جسما غريبا محدّد الموضع تستطيع عمليّة بسيطة أن تبعده فورا. كلاّ فلربّما كان استدعاء جملة من الأخصّائيّين من مختلف الجهات المعنيّة أجدر بأن يقدم خطوة جادّة في علاجه خاصّة إذا ما أوقف تيّار المدّ الأجنبيّ عند حدود معيّنة.

إنّ تضافر جهود مختلفة الجهات في التّوعية والتّثقيف والرّدع المعنويّ والمادّيّ وتهيئة الأطر الكفيلة بتوجيه طاقات المنحرفين إلى العمل والإنتاج في الاتّجاه القويم كفيل بأن يدمج هؤلاء في النّشاط التّنمويّ الوطنيّ بشكل منسجم.

إنّ فقدان مرافق التّسلية والتّرفيه المفيدة (غير المشبوهة) من الأسباب الّتي دفعت الشّباب التّوّاق للرّفاه إلى البحث عن إرواء عطشه بالطّرق الملتوية خاصّة منه ذاك الّذي لم يكن مشبعا بالتّربية

الصّحيحة أو كان في فترة جموح المراهقة والدّاهية الدّهياء، تكمن في ارتياد ساحات الشّبهات أو الوقوع في الجريمة مرّة ينتج عنه الظّمأ المتجدّد حتّى الإدمان وذلك لعوامل نفسيّة وفسيولوجيّة معروفة.

هذا ومن الملاحظ في ساحتنا الوطنيّة أيّامنا هذه حضور ما يعرف حديثا بالجنس الثّالث ذي الأدوار المتعدّدة ولعلّ من الغريب إهمال نشاط هذا الجنس الغريب من طرف الجهات المسؤولة رغم ازدياد خطورته يوما بعد يوم ولربّما كان ممّا يلفت النّظر في هذا المضمار سكوت صحافتنا تجاه هذه الشّريحة الموبوءة فمتى يدرك المسؤولون في الجهات المعنية عامّة خطر هؤلاء الشّاذِين المخنَّثين؟

ومن أين لنا أن يكفّ أثرياؤنا سامحهم الله عن إزهاق روح قِيَمنا الأصيلة بإغراء الشّريحة الموبوءة بوضع حبائل لاصطياد الأغبياء في شبابيكها كلّ يوم ضحايا لحساب الأثرياء؟

عزيزي المواطن ألا ترى معي أنّ المسؤوليّة تقع على عاتق الكلّ وأنّ الظّاهرة ذات أبعاد مختلفة تتطلّب التّفكير في خطّة شاملة كبيرة تتناسب معها حجما بَلْهَ القيام بحملة موسميّة ذات بعد ردعيّ واحد لن تلبث أن تخمد كشعلة النّار في الحطب الرّقيق أمام العاصفة.

الشّعب، 1993

ليلة من ليالي الإبحار

ليلة من ليالي كانون يتعانق فيها ليل كموج البحر بموج كقطع اللّيل البهيم يتحرّك عالم صغير بحجمه كبير بمضمونه وغاياته على صفحة ماء صاخبة. الوقت هادئ إلاّ من رقصة متناغمة تؤدّيها سفينة ابن خلدون باستمرار وكأنّما يطربها خرير الماء وخفق الرّياح. تخفق الأمواج في أرجائها خفقان الشّوق في قلب الأسير.

جموع البحرين في قاعة النّادي. تتوسّط الجموع "السِتُّ حَذامِ". تُمْسِكُ الميكرفون قائلةً: "نحن اللّيلة مع الأخوات من الوفد الموريتانيّ في حصّة تعارف."

أخذت نساء الوفد الموريتانيّ مقاعدهنّ في الوسط. بدأت الرّئيسة تحيّي الحاضرين ووزّعت الأدوار بين زميلاتها وأعطت عناونيْن للحديث هما: "كلمة عن البلد" و"كلمة عن المرأة". كانت الكلمة عن البلد مختصرة وفي كلمتها عن المرأة أسهبت المقدّمة وبدأت حديثها قائلة: "المرأة الموريتانيّة لا تُعْتَبَر أسوأَ نساء العالم حظّا فهي لم تَعْرِف الحجاب بشكله المتشدِّد المعروف في بعض بلدان الشّرق ولم تخضع لنظام تعدُّد الضّرّات في بيتها وقد ظلّ ضرب النّساء فعلا منكَرا يُعْتَبَر الطّلاقُ نتيجتَه الحتميّة ولا يوجد إلاّ في الفئات الأقلّ احتراما."

صفّق الجميع بحرارة...

استدركت المقدّمة قائلة: "لا يعني هذا أنّ المرأة عندنا سعيدة بما هي عليه ولا يعني أنّها لا تعاني من مشكلات فهي تعاني من عدم أخذ حقوقها في التّعلّم كاملة إذ تمنع من مواصلة تعلّمها في كثير من الحالات لأنّها لا تستطيع أن تخرج عن محيط الأسرة طلبا للعلم كما تعاني النّساء من الطّلاق بدون حقوق والزّواج المبكّر خاصّة في الأرياف الآن ويمكن القول باختصار إنّها سيّدة في البيت، مسُودَة في المجتمع لأنّها لا تُشْرَك في القرار العامّ غالبا."

بعد هذا الحديث الّذي كان ختاما لجلسة التّعارف في ذلك المساء أخذتُ مجلسي في زاوية النّادي إلى جوار رجل أشمطَ، ضخمِ القامة، غامِقِ البشرة، بارزِ الملامح، كنتُ قد التقيتُه عدّة مرّات في بهو السّفينة. نظر إليّ مبتسما ابتسامة باهتة وقال بصوت خافت: " أحقّا هو الرّجل الموريتانيّ هكذا؟ إنّه مسكين، إنّه مسكين!" خامرني إشفاق لم أحسّ به من قبل فرددتُ عليه بلهجة من يريد أن يدفع عن نفسه تهمة: "إنّه قويّ لكنّه حرّ يعيش بين الأحرار." نظر إليّ نظرة من لا يصدِّق فشعرت بأنّني بالغت في تبرئة ساحة الرّجل الموريتانيّ بشكل يميل إلى العفويّة والسّذاجة وقبل أن أفتح

نافذة نقاش جادٍّ حول الموضوع خرجتْ سيّدةً يَمَنِيَّةٌ عن صمتها قائلة في نفس السّياق: "الرّجل الموريتانيّ مثقَّفٌ وَواعٍ. لقد تعرّفت في رحلاتي إلى مصر على شبّان موريتانيّين كانوا غاية في الوعي والشّعور القوميّ والوسامة! إنّ صورهم ما زالت عالقة بذهني." ابتسم صاحبنا ابتسام سخرية ودون أن أترك له المجال للتّعليق قلتُ بلهجة تقريريّة: "هذا لا يعني ضعف الرّجل عندنا ولكنّ مجتمعنا لحسن الحظّ مجتمع بدويّ كان يعيش حياة البداوة إلى حدّ قريب والبداوة تميل إلى البساطة. فالخيمة البدويّة مثلاً لا تتّسع لأسَر عديدة والرّجل في الغالب لا يستطيع تحمُّل أعباء عدّة أُسَر في حلّها وترحالها وحاجاتها الأخرى والمرأة لا تستطيع أن تبقى محجَّبة في هذا الجوّ نظرا لهشاشة المساكن والحاجة إلى مشاركة الجميع في العمل اليوميّ."

هنا قاطعني الرّجل قائلا بعصبيّة: " إذاً الظّروف هي الّتي عملت على اختفاء ظاهِرَتَيْ تعدُّد الزّوجات والحجاب ولكن ما أعترض عليه هو أنّ المرأة عندكم تُطَلِّقُ على الرّجل إذا ضربها. أليس إنسانا؟ ألا تعتريه حالات الغضب؟" قلتُ: "أجَلْ كلّ شيء يمكن أن تتحمّله المرأة عندما للمحافظة على دعامات البناء الأسريّ إلاّ الضّرب. أليس الضّرب إهانة وعملا وحشيّا؟"

عندها نبس الرّجل بزجرة خشيت أن تكون إيذانا بضربي أو بضرب أختي اليمنيّة وقال: "وإذا عاد الرّجل متعَبا من عمله فتشاغلت المرأة عن استقباله ولم تقدِّم له طلباتِه فكيف لا يضربها؟ وإذا خرجت بدون إذنه أو تأخّرت عودتها فهل يبقى خاضعا راضيا لما فعلت؟ " قلتُ: "أما يكفي العتب واللّوم؟" ردّ: "المرأة إذا لم تضربها تحتسب أنّك فاقد الرّجولة. هذا معروف عند كلّ الشّعوب." وهنا أحسستُ أنّ إقناعه بالأمر بعيد المنال فقلتُ بيأس: "يا سيّدي لا أستطيع أن أتصوّر أنّ مَن يُضْرَبُ يستطيع أن يتعامل مع ضاربه بسماحة إلاّ إذا كان طفلا أو قاصرا." فردّ عليّ قائلا: "تصوّري أنّ لي زوجة مثقَّفة ومحترَمة وجميلة وأنّني ضربتُها مرّات ولا أتذكّر أنّها طالبتني بالطّلاق مرّة واحدة لأنّها تعرف أنّني إنسان أنفعِل." قلتُ: "وكيف عوّدتك على التّعامل معك بعد أن تضربها؟" قال: "تخرج إلى إحدى غرف البيت وتغلقها عليها وتبكي وبعد مُضيّ وقت قصير آتي إليها معتذرا وأركع عند قدميْها راجيا أن تغفر لي زلّتي ونعود كما كنّا قبل الحادثة." قلتُ: "ألا ترى زوجتُك في سلوكك هذا ضربا من السّذاجة وتقلُّب المزاج قد يكون منافيا لِما تسمِّيه رُجولة؟" قال: "لا...أبدا...هي تحترمني." فوجدتُ نفسي أقول: "مسكينة..." فسكتُّ خوفا من أن يَفهم ما لهذه الكلمة من مغزى وحاولت

أن أحسم النّقاش بكلمة فقلتُ له: "إنّ وقْعَ كلمة الطّلاق في أذهانكم هو وقع كلمة الضّرب في أذهاننا على ما يبدو."

الشّروق، العدد 06–08، مارس 1991

الكتاب والشاشة

صراع تعارض أم تكامل؟[1]

[1] تلخيص لمحاضرة ألقيتها في المركز الثقافي لوزارة الثقافة ... 1998

لعل من المناسب في بداية هذا العرض إلقاء نظرة على طرفيْ الثنائية الّتي وضعتُ عنوانا للموضوع. وذلك في محاولة لإنارة وتحديد جوانب الإشكال المراد تبيّنُ أوجهِهِ المختلفة، علما بأن القارئ والسامع العزيز قد لا يجد مسوغا للتعريف بأشياء يتعاطاها في حياته اليومية كالكتاب ووسائل الإعلام السمعية البصرية، لكننا ننطلق من أن ذلك لا يمنعه من أن يكون ناقص الإدراك لبعض خصائصها الذاتية، وانعكاسات تعاطيها على المستوى السوسيولوجي خاصة؛ فليس كل مألوف معروفا في جوهره ووظائفه بشكل كامل.

فما هو الكتاب إذا وما هي الشاشة وما هي زاوية نظرتنا لهما؟

- الكتاب:

الكتاب هو كلّ ما تَضَمَّنَ رموزا خطية ذات مدلول اصطلاحي على مدلولات معينة لدى مجموعة بشرية ما. وكان العرب يطلقون لفظ كتاب على كل مكتوب من العهود والرسائل القصيرة إلى المدونات الكبيرة. لكن الكتاب والكتابة ظلاَّ عندهم يدلان على أهمية محتواهماأيا كان حجمهما. لأنهم لم يكونوا يكتبون من أمورهم إلا ما يكتسي أهمية خاصة، ولقد تعززت هذه المنزلة بأضعاف لدى العرب في ظل الإسلام نظرا لأن القرآن نفسه كتاب **[إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ● لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)**)فصلت 41و42)، ولأنه يدعو إلى القراءة والكتابة والعلم والتعلم وفيه كثير من ذكر الكتب والكتابة مما يعتبر دليلا ساطعا على أهميتها في تاريخ الديانات السماوية والتاريخ البشري عموما.

هكذا إذا، كان الإسلام قوة دفع لم يسبق لها مثيل في تاريخ العرب نحو التعلم والعلم اللذين يعتبر الكتاب أداتهما الرئيسية آنذاك؛ فقد ازدهرت الثقافة المكتوبة شيئا فشيئا خدمة للنص القرآني والسنة المطهرة. وظهرت العناية بجمع التراث اللغوي في هذا السياق، ونشطت حركة التدوين وبلغ ازدهار سوق الكتاب أوجه في العصر العباسي حيث شكَّلت صناعة الكتاب مهنة قائمة بذاتها تسمى

الوِراقة، وقد كان من أبرز المشتغلين بها لهذا العهد الفيلسوف الأديب أبو حيان التوحيدي(414هـ/1023م). فبالإضافة إلى نشاط حركة التأليف في شتى فروع المعارف والترجمة عن اللغات المختلفة عكف الوراقون على استنساخ الكتب يستجلبون الورق من فارس والصين (أقدم بلد عرف صناعة الورق)، وبموازاة ذلك شاع الإقبال على المطالعة في صفوف الناس عامة لهذا العهد، وظهر لدى الأمراء وأرباب الجاه والمال، شغف باقتناء الكتب مما كان له دوره في دفع صناعة الكتاب إلى الأمام بشقيها التأليفي والكتابي (الإخراجي)، ونتج عن ذلك ازدهار فن الخط لدى المسلمين حيث يعتبر إلى حد الآن الفن التشكيلي الوحيد الذي ازدهر في ظل الإسلام.

هذا ولعل الحكاية المأثورة في شأن غزو المغول لبغداد تعتبر أقوى دليل على ازدهار الكتاب في تلك الفترة، بل وازدهار المعارف الذي هو وعاؤها كما يقول الجاحظ(ت255هـ868م) (في كتاب المحاسن والأضداد)، حيث تقول هذه الحكاية إنّ المغول لما رموا ذخائر مكاتب أهل بغداد من الكتب في دجلة تحوَّل لون مياهها فترة طويلة إلى اللون الأزرق الغامق، لما اختلط به من الحبر.

الكتاب عند الموريتانيين:

إذا نظرنا إلى التاريخ المحلي الموريتاني نلاحظ أن الموريتانيين ظلوا يقدسون الكتاب إلى حد بعيد، يستوي في ذلك الأميون والمتعلمون؛ فكل ما أخبرت به الكتب قطعي، لا مجال للشك فيه، وقد ابتدعوا طريقة نقل الدروس اليومية والمحفوظات في اللَّوح إيثارا للكتاب وحرصا عليه من التداول الذي قد يسبب له التلف، كما كانوا يبذلون كل غال ونفيس من أجل الحصول عليه. وفي هذا الصدد تحمل لنا ذاكرة المجتمع كثيرا من الحكايات الدالة على حرص الموريتاني على مطالعة الكتب واقتنائها والمساجلات في أمر إعارتها. وقد قيل إن أحد العلماء سئل عن حكم إعارة الكتب فقال مازحا: "ما أعرفه هو أن من يعير كتابه أحمق، وأشدّ منه حمقا من يُعار له فيرجعه إلى صاحبه".

وكفى دليلا على أهميته عندهم ما يوجد اليوم –بعد عوادي الزمن– من مخطوطات كثيرة استنسخوها بأناملهم في ظلال الخيام والأشجار وفي ضوء النار ليلا، وحملوها في الصناديق الخشبية على ظهور الجمال والنوق في فيافي الصحراء تحت لفح الشمس وسياط السَّموم، حتى وصل إلينا منها هذا الكم الهائل الذي نراه اليوم. وذلك رغم بدائية الوسائل، وشح المصادر، وبعد الدار عن المنابع الأصلية.

وعليه فإن أهمية الكتاب في تاريخنا العربي والمحلي، لا يمكن أن تحصر أوجه تجلياتها. والمقام لا يتسع

لأكثر من إلقاء نظرة سريعة فحسب.

وقبل أن نصرف النظر عن هذا المنحى نعرج قليلا على واقع الكتاب ...في العصر الحالي فكيف ذلك.

واقع الكتاب:

لقد تلقفت أيدي عشاق الكتاب وسائل الطباعة الحديثة منذ أواخر القرن الماضي في البلاد العربية (حيث كان لمصر وبلدان الشام قصب السبق في ذلك) فعكفوا على إخراج الكتب ونشرها سواء منها القديم أو الحديث حتى صارت دور النشر المنتشرة تتسابق لنشر كل ما يصل إليها من كتب لتقذف كل يوم بآلاف الكتب وتوزعها في شتى أصقاع العالم بآلاف النسخ، بل إن معارض الكتب أصبحت من التقاليد الثقافية المعمول بها عالميا ويكفي أن معرض الكتاب في القاهرة وحدها أصبح يستقبل سنويا منذ فترة زهاء 2300 ناشر من الدول العربية وقد بلغ عدد الكتب المعروضة في سنة 1997 الماضية زهاء سبعين مليون كتاب.

هذا ولا شكّ أن زيادة مستوى التعليم على المستوى العالمي (نسبة التمدرس) قد دفعت حركة التأليف إلى الأمام كمًّا ونوعا بموازاة ذلك.

هذا إذا، هو الكتاب في ماضيه وحاضره لدى العرب ولا يخفى ما له من أهمية في تاريخ البشر ككل، ولا أدل على ذلك من أن الفرق المعروف بين التاريخ وما قبل التاريخ قائم على أساس تاريخ وجود الكتابة. فالتاريخ هو ما توجد عنه المصادر المكتوبة، أما ما قبل التاريخ فهو الذي لا توجد عنه إلا مصادر الحفريات وما شابهها.

- الشاشة

الشاشة ونعني بها قنوات الاتصال التي تتخذ الصورة والصوت وسائط للاتصال مع المتلقي وهي بالأساس السينما والتلفزيون والفيديو والحاسوب. إنها الشاشة الناطقة باختصار وأولها تاريخيا السينما حيث ظهرت منذ أوائل القرن الحالي. أما التلفزيون فقد ظهرت منذ أواسط هذا القرن وتطورت آلياتها خلال العقدين الأخيرين بشكل لم يسبق له مثيل وعززها الحاسوب حتى أصبح هناك ما يعرف بالثورة الإعلامية وأصبح لهذه الثورة الإعلامية من الدور ما يفوق أغلب الصناعات المتطورة في العصر الحديث.

إن هذا الإعلام رغم قصر عمره إلى الآن، قد أصبح سلطة قائمة بذاتها تسمى السلطة الرابعة، في موازاة السلطة السياسية والاقتصادية والعسكرية، وهو يشكّل سلطة تتفاعل مع هذه السلط وتحاول كل واحدة منها أن تستغله لصالحها. ففي زمن الحرب الباردة كان مسخَّرا للسلطة السياسية، ومن ثمّ كانت تحتكره القوتان العظميان لنشر الأخبار والتقاطها في إطار الصراع القائم بين القطبين (التجسّس، الدعاية)، ولما انتهت الحرب الباردة وبقيت السلطة السياسية في يد القطب الرأسمالي بدون منازع أصبح هنالك ما يعرف بإعلام السوق أي الإعلام المسخر للسلطة الاقتصادية وبالتالي صار يحاول أن يلبي أذواق أكبر عدد من الجمهور. بمعنى أن رسالته صارت تجارية وخفت صوت الرقابة الأيديولوجية عليه بشكل مباشر فعادت الرسالة الإعلامية رسالة متعة وإثارة ومغامرة أكثر من أي شيء آخر تمشيا مع أذواق الجماهير الحديثة.

وقد نجحت في ذلك إلى الحد الذي نراه اليوم من الإقبال الغريب على هذه الوسائل بحيث أصبح صوتها يعلو على أصوات كل قنوات الاتصال في المعارف الأخرى مما جعل من الوارد مراجعة ما لهذا الإعلام وما عليه. هل شكّل بديلا يمكن الاستغناء به عن الوسائل التقليدية التي تطورت آلياتها هي الأخرى أم ما زال لها نفس الدور بموازاته وكيف يمكن ذلك؟

الكتاب والشاشة:

لقد حولت الآليات الإعلامية الحديثة العالم، ليس إلى قرية واحدة، وإنما إلى غرفة واحدة، جدرانها الزجاجية تتيح التفرج على المشاهد الحية وسماع الأصوات المعبِّرة من كل مكان؛ لذلك فإن حضور الشاشة في حياتنا الحديثة لم يعد مجال اختيار أو مناقشة، كما أن طواعيتها لتداول الأخبار ونقلها، أمر لا جدال فيه، لكن سيطرتها على الرسالة التي تقدمها من الوجهة التربوية تتطلب أشياء قد يعوزنا الحصول عليها أمام الغزو الثقافي الزاحف. ولئن كان الكتاب نفسه ليس محصنا عن مثل ذلك؛ فإن الشاشة تبقى رسالتها أسرع سريانا في صفوف الأميين ومن هم أقل حظا من الوعي. ومهما يكن من أمر، فإن الشاشة قادرة على أن تسخَّر لخدمة البشرية إذا ما وجدت التأطير الضروري؛ فهي بدون شك، قادرة على صياغة فكر ووجدان، لما لها من تأثير في عقليات وأذواق الجماهير، لكنها في الواقع المنظور، لا تستطيع أن تحل محل الكتاب، على الأقل بالنسبة للقوة الحية المتعلمة في المجتمع، وذلك

لأنها في شكلها الحالي، تعتمد على الملاحظة السريعة غير المتعمقة من الناحية الإجرائية، فضلا عن طبيعة الموضوع المقدم، بينما يعتمد الكتاب على التأمل والاستكشاف بشكل وئيد متأنٍّ، وهو ميسر للفرد في خلوته وفي أي مكان يصله (في السيارة، في الحافلة...) وحينما يركن إليه، ينقطع عن المشاهدات الخارجية التي تشوش الانتباه عادة.

وبذلك يمكن القول إن جمهور الكتاب من حيث النوع، يفوق جمهور الشاشة، لكن تبقى الشاشة من حيث الكم، تفوق في جمهورها الكتاب. جمهور الكتاب عادة من الباحثين والأكاديميين والطلاب. أما جمهور الشاشة، فأغلبه من أصحاب الميل إلى المجهود الأدنى في اكتساب المعارف، وهواة الأنباء والأميين ومن جرى مجراهم. وهناك تقاطع بين الجمهورين فيما يتعلق بالصحف الإخبارية البراقة، ذلك أن القائمين على هذه الصحف يحاولون بعقلية تجارية أن يقوموا بما يعرف بعملية "تشييش" الصفحة (جعلها شاشة) لما لاحظوه من كساد المادَّة المقروءة في وجه إعلام السوق في هذا العصر.

ومهما يكن من أمر فإن المزيد من الرقابة الجادة على هذه القنوات قد يجعل بين دوريْهما نوعا من التكامل، بحيث يبقى الكتاب يمثل الوجبة الغنية التي لا غنى عنها لأي فرد، في حين تمثل الشاشة الوجبة السريعة الميسَّرة في أي وقت (صاندويش)، وتظل بلدان ما يعرف بالعالم الثالث، بحاجة أكثر إلى تحقيق مصداقيتها الإعلامية لدى جمهورها، وذلك في وجه الغزو الإعلامي الغربي الذي لا ينطلق أصلا من أرضيتها، ولا يخدم بالضرورة مصالحها القومية والقطرية، بل يعمل على طمس الهوية الحضارية، ونسيان الذات، في غمرة الانبهار بالآخر لدى الجمهور في هذه البلدان، وفي انتظار أن تحقق الوسائل الإعلامية السمعية البصرية مصداقيتها، من حيث المحتوى المقدم، بالنظر إلى طريقتها السريعة العابرة في تقديم المعارف، فإنه يجدر بنا أن نعطي للكتاب نصيبا أكثر من وقتنا، ونربي جيلنا الصاعد على صحبته أكثر، حتى يكون خاضعا لتأطير جاد من البداية، ويصدق عليه قول الشاعر معروف الرصافي:

يا فتية في سبيل العلم قد سهروا *** يجنون من ثمَر طابت مجانيه

هامت عيونهم بالكتب فانشغلوا *** بكل معنى يغذي الفكر تحويه

وأعرضوا عن ملاهي الكون في زمن *** أضحى الشباب غريقا في ملاهيه.

الطبعة الأولى: ماي 2018

ISBN : **978-2-37711-058-2**